

المستحيل



مصطفى محمود

المستحيل

الطبعة الثالثة

١٩٧٧

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..
 والبيت خال . زوجتي عند أمها وأنا جالس وحدي انصت
 إلى صوت تنفس البطي فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب
 لا أعرفه . ويدعني شعور ثقيل مر بالقرية ..
 هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسي وانظر وجهاً لوجه في حياتي
 وأناملها ..

أى حياة !!

إني لم أعش أبدا

ليس في حياتي يوم واحد أستطيع أن أقول أنه كان يومى ..
 إني لا أعيش .. ولكنى أتحرج كحصاة كبيرة ثقيلة نسوقني
 الوظيفة إلى المكتب .. ويجبرني الزواج إلى البيت .. ويدفعني الملل إلى
 المقهى .. ويلقي بي المجموع إلى مائدة الطعام .. ويقهرني الغيظ على
 التدخين . ويقذف بي التنب إلى الفراش

خمس وعشرون عاما مرت من عمري كأنها لا شئ ازدت في
 الوزن .. في الطول .. في العرض ولكنى لم أزد في الحياة
 سنة بعد سنة وأنا أغوص في أرض رخوة من الأوامر والواجبات
 والكلمات الغريبة ..

الواجب .. الأصول .. تقاليد العائلة تحتم مركز والدك
لا يسمح .. سنك لا يليق فيه كذا . كرامتك .. ماذا يقول الناس .
كيف تكون نظرة المجتمع إلينا الاحترام . الوقار يا أخى .
حتى الجاكنة التى البسها كانت مسكينة مثل بلا شخصية تطول
وتقصر وتنسج حسب المؤضة لا يراذق ولا يرادة التزى ..
ولكن يرادة التقاليد ..

فى وقت ما كنت أسك فى بدى مشة .. وفى وقت آخر كنت أسك
عصا وفى وقت ثالث كنت البس طربوشاً
والآن تضع لى زوجتى مندبلا فى كى .. وتحرم على لبس الطربوش
كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسى ولا ألبسها
والحياة كلها كانت تلبسى .. وحركاتى تلبسى . وأنا أنضال سنة
بعد سنة تحت الردم . تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة .

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولى فى حياى .. فى الفرفرات الخمس
التي أسكنها .

إنها غرفات غريبة ضيقة .. وسقفها منخفض . وكل منها توصل
إلى الأخرى . وهذا ليس ذوق .. فأنا أحب الفرفرات الواسعة ذات
السقف العالى التى تفصلها الممرات والصالات .
وهى غرفات تضربها الشمس من البين والشمال .. وأنا أحب
الفرفرات الرطبة الظليلة .

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى لقد اختاره والدى .. اختار المكان
والأرض .. وبنى البيت حسب ارادته . وفصله حسب ذوقه .. واختار
الأثاث قطعة قطعة . حتى الصورة الكبيرة النسخة المنقولة عن
صورة الجيو كندا لدافنشى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى

بناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال إنها مثال للذوق الرفيع فى الفن .

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قائمة .. وأن دمها ثقيل .. ولكنى لم أتكلم .. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدباً .. وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه .. فقلت له : نعم .. أنت على حق أنها رائعة .

وقال فى زهو العارفين :

انظر إلى اليمين جيداً

ونظرت إلى اليمين جيداً .. فلم ألحظ شيئاً .. وقال فى انتصار :
- إنها تبتسمان .. انظر .. هذا هو الإعجاز فى اللوحة .. إن الرسام

رسم اليمين تبتسمان

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين لتعزف للجيوكندا وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم .. وأنت تحس بالموسيقى .. وتسمعها وأنت ترى اليمين فى وضعها الجميل الياسم .

وأكبرت فى والدى هذا الإحساس المرهف .. وإن كنت لم ألحظ أنا أى شئ غير عادى فى الصورة وظللت أعبد على كل ضيف يزورنا هذه القصيدة .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى والإعجاز فهز رأسه تماماً كما هزتها ويقول فى آلية .. يا سلام .. حقاً إنها رائعة .. واليدان تبتسمان .. تماماً يا سلام ..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر .

وظللت على إكبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرة العميقة الناقدة حتى قرأت مصداقة .. وفى مجلة قديمة .. كل هذا الكلام بالنص .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليمين .. والإعجاز .. الخ الخ .

ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء . كل قارئ يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه .

وظللت من يومها أشعر بالغيب كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار في غرفة الصالون . وأنسعر أني لم أقل رأيي أبداً فيها . وأنى عشت أردت كلمات غريبة عنها طول عمري .

وكان من عادة أبي أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن عليّ . هكذا كان يقول .. ولكني أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه ليرى أن أوامره ما زالت نافذة .. وملاحظاته معمول بها . الدواليب مغلقة بالمفاتيح .. والمفترش المشمع موضوع على مائدة الطعام .. وأصيص النعناع في البلكون .. والنوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشمس .. وأول شيء ينظر إليه عند دخوله هي النوافذ . فإذا رأى النيش مقلقاً فتحه على مصراعيه وهو يصيح :

- الشمس يا بني الشمس . هذه شمس لا مثل لها في الدنيا .. إنها أحسن دواء للروماتزم .. افتح النيباك عندك . أنا قلت ألف مرة افتحوا كل النيبايك .

ويتمدد في الشمس يطرقع مفاصله ..

وأبي كان دائماً يشكو من الروماتزم . ولهذا كان يفتح النيبايك في بيوت أولاده . في كل وقت .. وفي كل فصل من فصول السنة .. ولو استطاع لسقانا فتجاناً من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان يفعل .

ولم يكن يجدي أن نحتج ونقول أننا أصحاء .. وأنتا لسنا مرضى بالروماتزم .. فعنى أن يكون أبي مريضاً بالروماتزم .. أن تكون جميعاً مرضى بالروماتزم .. فأبى مفتش تركي فيه كل أخلاق الأتراك ودماعهم

الناصف . وغرامهم بالأمر والنهي .

وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا تكية . . ويعيش حياته ويعيش لنا
حياتنا أيضاً

لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كيأناً مستقلاً
أذكر حيناً كنا صفاراً أن أبى كان يحب الشاي فكنت أشرب معه
الشاي . وحيناً تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب
شرب الشاي . أصبحت أشرب الينسون . . لأنه أصبح يشرب الينسون .
وظل سلطانه يخلق فوق رأسي حتى بعد أن تجاوزت سن التلمذة
وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص

كنت أستشيريه من تلقاء نفسي كلما وقعت في مشكلة كان الخوف
ما زال في دمي . الخوف من الدنيا ومن المرأة ومن أن أحسم
أمرأ بإرادتي . . ويدون مشورته .

كان قلبي تأكله الرغبات من الداخل ولكني لم أكن أجسر على
التفكير فيها وإشباعها وإنما كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفي بأن
أقنئ ثم أهرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدي أطلب نصيحته . . وأترك
له حياتي بيت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر .

وهكذا ظلت حياتي معطلة طوال هذه السنين . . وظللت أعيش طفلاً
كبيراً يلاً قلبي الخوف والاحترام والرهبة . .

ولو سألتني إن كنت أحب أمانة زوجتي لما وجدت جواباً فأنما
لم أحبها ولم أكرهها ولم أختارها وإنما هي كصورة الجيوكندا
وضعها والدي في بيتي وقال إنها جميلة ورائعة . فقلت خلفه كالطفل
جميلة حقاً ورائعة واحتضنتها كما احتضن كل كلمة يقوها أبي .
ولكن بقدر الراحة التي كنت أحسها في هذا الحب إلا أني كنت
أحس أنه ليس حبي أنا . . وإنما هو حب أبي وذوقه واختياره . .

كان كل شيء حولي لا يمت لي .. كان كل شيء غريباً عني حتى
ملابسي .. حتى أفعال .. حتى أقوال كانت غريبة عني .
ولكني لم أكن أدرك مشاعري بهذا الوضوح في البداية . لم تكن في
ذهني فكرة واضحة عن شيء ..
كنت أعيش في فتور وآلية .. وبلادة . واستسلام . حتى مات أبي
فجأة .

وأفقت لأجد نفسي وحدي .. بدون سند إلى جوارى .. بدون
قدر .. بدون إله .. بدون حب .. بدون مرور لأشئ فعل أفعله سوى
إرادتي .

وأين هي إرادتي ؟

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية في توقيع شيك .. وأنظر فوق كتفي
بين لحظة وأخرى .. أنتظر أن يظهر والدي فجأة لأسأله .. هل من
الصواب أم الخطأ توقيع هذا الشيك .
ولم يكن هناك حل ..

كان لا بد لي أن أحمل أعبائي بدون معونة أحد .
وكان هذا يسبب لي قلقاً حاداً قاسياً مجرماً النوم .
لقد بلغ ميراثي وحدي من تركة أبي مائة فدان غير العقارات
والأملاك وسندات البنوك .. وهي ثروة كبيرة فوجئت بها
وكان معنى هذه الثروة أن أذهب في عشرات المشاور كل يوم .. إلى
البنك .. وإلى البلد . وإلى البورصة .

وفي كل مشوار من هذه المشاور أقابل ناساً لا أعرفهم .. أناقشهم
وأوقع على أوراق . وأمضي على عقود . وأبدأ صفقات . وأنهى صفقات .
وفي كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أني وحيد متردد خائف .
وأعود من البنك مبليلاً الذهن .. في ظني أني قد نسيت شيئاً ..

وقعت في خطأ ما .. أو تورطت في إجراء غير قانوني .
ولكن بمرور الأيام بدأت اكتشف أن المال في البنوك والإدارات
المالية يحفظ نفسه بنفسه . وإنى لست في حاجة إلى ذكاء كبير
لأضعف أموالى فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها في العقارات
والأراضي والبنوك .. وما على إلا أن أنهب أول السنة لأجمع الأرباح
وأوقع في دفتر .. وبدأ الخوف يزايدنى
وبدأ ذهنى ينصرف إلى أفكار أخرى ..
أفكار لا علاقة لها بالأرض .. والبنك .. والمرحوم والذى .. أفكار
لها علاقة بى .. أنا .
وحينا أحضرت لى زوجتى كوب الشاي منذ أيام .. وقلت لها
أنا لا أحب الشاي ..
نظرت إلى لى دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول ..
أنا .. لا أحب ..

تعودت أمينة أن أكل ما تقدمه .. وأشرب كل ما تقدمه ..
ولكنى قلتها
قلت .. أنا لا أحب .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً لأنى أقول
ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالآ لأحد ..
واكتشفت فى ذلك اليوم عندما دخلت غرفتى وجلست على مكتبى
أنى لا أرفض الشاي وحده .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة
أرفض ببقى وحياتى وأتمنى أن أصرخ فجأة .. لأقول لزوجتى أنا
لا أحبك . وأقول عن حياتى أنها سخيفة .. وأنزع الصورة المدلاة من
الجدار .. وألقى بها فى الشارع
ولكنى لم أجِد الجرأة على أن أقول كل هذا ..

واكتفيت أن أرفض الشاي في عصبية .. وأزيجحه من أمامي .. ثم
أشعل سيجارة ..

وعادت حياتي فجأة أمامي .. كشرط سريع .. حياة سخيقة مثل
لحبة مستعارة .. ليس فيها ملاهي .. ليس فيها .. أنا
وشمرت بشهوة الطفل في تحطيم أي شيء .. والجري إلى الحلاء ..
إلى الهواء الطلق .. والعريضة .. والضحك .. والبكاء ..
شهوة ملحة في أن أبسط أجنحتي التي كانت مضمومة طوال هذه
السنين .. وأحلق بها كالطائر ..

وتدققت أيامي كلها .. تطالب بحقها في أن تعيش من جديد ..
طفولتي .. صباي .. شبابي

ثم عاودني الجبن .. وتيقظ خوفاً القديم .. وأمسك بعقال ..
وسكت على ماضي .. وأنا ألوک في في آلاف الكلمات ..
ولكني أحسست أنني تغيرت .. وأصبحت شخصا آخر غير حلمي
القديم ..

عرفت لغة التردد ..

وظل هذا الإحساس يلازمي .. وأنا أدخل إلى البورصة ..
والسيجارة ما زالت في في .. وعيناي تقرأن الكلمات المكتوبة على
السيرة في الدور العلوي ..

حركة الأسعار .. نوع الأوراق المالية .. أسعار الفتح .. أسعار
الإقفال ..

وأذن تلتقط صيحات السامرة حادة مختلطة .. سيجورات ٨٤٢
سيلوس .. سيلوس .. التمددين ٤٠٠ بايع .. بايع ..
المناجم ١٢٨ الملح .. الملح .. شاربي ..
أنجنت طره ٩٧٠ ماتكسا .. ماتكسا .. بايع ..

والأيدى تلوح .. وتنتبك .

والأصوات الحادة ترن في أذني كأصوات القطط وهي تتعاري على
صفحة قامة .. وعيونها تنع ضوءاً أخضر مخيفاً ناو .. ناو .. لو ..
غو غو

ورأس الخواجة مزي التاجر المجوز ووجهه الأبرص المرقط
بالبياض يذكرني بوجه قطتنا .. جيجي ..
وانتقلت عينا في آلية لتقرأ على لوحة أخرى . كثرات أفطان
طويلة التيلة .. فولي جود ..

وصمت الخواجة مزي يتحدث ويلوح بيده
- يا حبي الدنيا هنا مجازفة . اللي عاوز يكسب لازم يجازف .
يرمي نفسه اللي يخاف هنا يموت ..
ووقفت خائفاً في ركن أطلب نصيحة الخواجة مزي قبل أن أبيع
أوراق ..

وأشار على بصفقة صغيرة ..
وأسكت بقلبي لأوقع الإذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل
إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولي .

كان كل واحد يتنمر . ويتلمظ على المكسب ..
وأخذت أنا الآخر .. أتلمظ .. وأتنمر .. وأتبع أسمار
أسهمي وهي ترتفع وتقفز من رقم إلى رقم على التابلوه .. وأتبع
الطبانسيرة وهي تكتب ١١٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ نم
تتوقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ - ١٢٣

وترددت لا من الخوف .. ولكن من الطمع .
لقد ارتفع السعر ١١ بنظاً في يوم واحد .. فابالي لو انتظرت يومين
آخرين ..

وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى . وشعرت بإحساس الطفل الذى
تزوج عيناه أمام دكان الحلوى ..
وغمرنى الخواجة م ترى لكى أبيع . ولكنى لم أبيع ..
وحينا خرجت فى ذلك اليوم . كنت أشعر بشئ جديد غامض يدخل
حياتى .. كنت أحس بنض الحساس والمرأة يتسلل إلى عروقى .
وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عني شيئاً فشيئاً كالرداء . وتبدو
غريبة ..

زوجتى بيقى . فنجان النسأ الذى أرسفه على الفطور .
أصوات الشارع الأليقة وهى تملو فى الصباح تحت نافذتى مهمة أم
حسن خادمتنا المعجوز على مسيحيتها . ودعاؤها لى بطول العمر .
كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كعلم غريب غير حقيق .
لقد تغيرت

كان هذا الإحساس يسعدنى .. وكنت احتفل به فى قلبى

* * *

وحينا خرجت من السبنا فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة
الى البيت

ورأيت قديمى تسعين على غير عادتى الى ملهى ليل .
ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشأها . وتنايل ..
وتناود .. وتنام على ظهرها . وعازف الطبله يقفز حولها كالقرد ..
ولفت نظرى ان كرمى عازف الطبله عليه نسلته ولا أدرى لماذا
خطر لى ان عنده بواسير ..

وضحكت طويلا لهذا الخاطر السكران ..
ولم أكن قد دقت قطرة خمر .. ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشبعة

خفيفة .. وكنت أرى سبباً للضحك في كل شيء حولي .
وبدت لي حركات الطبل مثيرة للضحك .. وكان كلما مد يده خلفه
ضحك ..
وحيناً تركت الملهم في ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود إلى
بيتي مائتاً
وكنت أجد للهواء طمعا لذيقاً في رثقي .. وكنت أستنشقه في بطء ..
ويداي في جيب بنطلوني .. وفي يصر اغنية شعبية
وكان كل واحد يمر بي - يشتم .
وحيناً فتحت باب شقتي فوجدت زوجتي تقف أمامي شاحبة حراء
العينين قلقة . تهتف في صوت خائف :
- أين كنت طول الليل ؟
وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحاً .. وأن هذه هي المرة الأولى
التي أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة ..
ومسحت على وجهي بيدي .. وأنا أفيق .. وأعود شيئاً فشيئاً إلى
نفس القديسة ..
وقمتت بكلام لا أذكره
وخلفت نياي . وتناولت غشائي وأنا صامت .. لم أكن سعيداً بعودة
هذه النفس القديسة .
وبدا لي في تلك اللحظة أني هبطت فجأة من السماء إلى الأرض .
وعدت إلى الحياة كإنسان ميكانيكي يدور بزميلك .
وتناولتي زوجتي خطاباً عليه طابع دمشق .. ونظرت في الخط وأنا
أتساءل .. من الذي يرسل إلي خطاباً من دمشق .. ووضعت في
جيبى
وفي الفرائش مددت يدي إلى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه السطور .

عزيزى حلمى

لعلك لا تذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا
سنوات طويلة .. ولكنى أذكرك .. وأذكر معك أجمل أيامى .. حينما كنا
نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار .. ونجسرى فى
دائرة حول النورج كل منا يمسك بذيل الآخر .. وأذكر أيام زمالتنا
فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا معا حينما كنت تخاف وتعود إلى
المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان .
واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى .. وفكرنا أن نلتقى ثانية
لنتعرف على ماضينا الحلو . ونعيد أيامنا الجميلة .
إننا نعيش الآن فى دمتق ولنا أملاك وأراضى هنا . ونحن ندعوك
لفضاء شهر فى ضيافتنا ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة
ونحن فى انتظار اليوم الذى نعيدده وإلى أن نلتق لك حينما
وأخوتنا

« فؤاد »

ونسعدت بموجة من السرور . وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته
وأغمضت عيني
سوف أذهب إلى دمشق
وأخلع ردائى كله .. أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة .
وأخلع عنى القاهرة كلها .. وأخلع حياتى . وعاداتى . وكلهاق .. التى
أقولها كل صباح .. وأعيش .
وشعرت بدغدغة النسوة فى كل جسدى .. ونظرت إلى زوجتى فرأيتها
تنظر إلى باستغراب . ونسألنى عما فى الرسالة ..
ولم أجب .. وتناومت .. فأحاطتنى بذراعيها .. ولكنى لم أنسحر
بالرغبة فيها .

وأحسست بأطرافى تبرد وتتلعج تحت لمستها وأدبرت لها ظهرى
وبدأت أتغيل صاقي .. وجهها التركى الأبيض .. وصفيرتها الذهبية .
وعينها الصافيتين مثل كأسين من عسل التحل . وذراعها البيض مثل
عود الخوص الطرى .
وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى . وأحسست بلهب الجنس يحترق
دماغى .
ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرأ وضننت بها وتركتها
تغلى فى دمى ونزرقى .. مثل سر لذى جداً وظللت أحلم .
وكانت زوجتى تتحدث . ولم أكن أسمعها
كنت أنظر الى قها وهو ينفتح وينفلق .. وإلى كتفها العريضتين .
ودقت ساعة الحائط أربع دقائق .. ونقل قلبى فجأة وعادنى الحسوف
وأحسست أنى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرون سنة ..
وأنا فى بيتى لا أبرحه .
وداهنى نعور بالتردد .. نعور من يد رجله ليخطو خطوة واسعة فى
الظلام .

تبقظت في الصباح وقد نسيت كل شيء .. وفي اللحظة التي كنت ألبس فيها ثيابي .. كنت أدخل في عاداتي القديمة في نفس الوقت .. وكانت زوجتي تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التي تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة .. وعلى الأكثاف .. وعلى الظهر والأكتاف .. وثنية السروال .. ثم تتصحنى كماداتها أن آخذ بالي من الطريق وتنظر إلى نفس النظرة الحنونة .. وأم حسن تجرى خلى وفي يدها الحقيبة .. والباب يزوم كمادته دائماً كل صباح ليشكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المصعد يرفع يديه الإثنين لتحقيق .. ويفتح فة في بلاهة فتبدو سنته الذهبية نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التي أصطبيح بها كل يوم

وجلس في العربة .. ونصاعدت الى أنقى رائحة البازين .. وممعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات المحلات تتحرك في الزجاج وتغتنق .. ولكن أذني ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتي وهي تعطيني المتدبل ..

لا تنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابنتنا ..
جملة غريبة في هذا السيل من الحياة العادية ..
ظلت ترن في أفق طول الطريق .. وأنا أحس أنها جملة ظريفة ..

وأتذكر احتفال السنة الماضية . الذى لم يحضره أحد سواى أنا وزوجتى وأبى . وكيف كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها وأبى غاضب لأنها تناقسه وتريد عزومة الناس . . وماذا وراء عزومة الناس إلا الحسد وأنا أكل من التورثة ولا أفكر فى شئ وإبننا يصرخ فى الغرفة

ولكن الآن أفكر فى أنبياء كثيرة . . وأنتظر هذا الاحتفال بشوق . وكلبات زوجتى ترن فى أذنى كما ترن بشرى العبد فى أذن طفل . وإحساسى بالترق يدفعنى إلى الضغط على الكلاكس . . والعبث . . وأنا أسوق . . وأتأرجع يمناً ويساراً اليوم تحتفل . .

أنا أشعر بانبساط أتوقفت عند دكان لعب . واشتريت قرداً يزملك يقفز ويهصفق بيديه . . واشتريت ورقاً ملوناً . . وصواريخ ونوفاً مرة أخرى عند محل ورد . . ثم عدت أستأنف سيرى . . وأسلم نفى إلى حياى العادية . . وعلى شفى ابتسامة . .

وفى المساء حيناً عدت الى البيت . . دخلت غرفى وأنا أصفر . . ثم أغلقت الباب . . وأخرجت القرد وأدريت الزمبل . . ورحلت أنفجر عليه وهو يقفز ويهصفق بيديه حتى توقف . . ثم أدريت الزمبل مرة أخرى . . ورحلت أنفجر

ونسيت أنى قد أحضرت اللعبة لطفلى . . ورحلت ألب بها . . ولكن زوجتى التى تسملت من الباب الموارب وجاءت تستطلع . . ووقفت تنفجر خلقى . . ما ليثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى :
- أنت الذى تلعب . . غير محقول ؟

وضحكت وأمعت في الضحك ..
ومع هذا . فقد أسكت هي الأخرى بالقرود .. ثم بدأت تدير
الزنبلك .. وتلمب
ثم قالت فجأة في مرج:
- إن حفلة اليوم ستكون بطريقة .. لقد دعوت جيراننا ودعوت
صديقتي فاطمة .
ورفعت رأسي عند ذكر الاسم .
وكنت أسمع منها دائما حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية ..
ولكني لم أكن قد رأيتها أبدا
وكانت كثرة ذكرها أمامي . ورواية حكاياتها . قد جعلت لها
نمطية في ذهني .
وشعرت بمرور حق ..
وعدت أملاً الزنبلك وأنفجر على القرود .. وهو يقفز .. ويصفق
بيديه .

لأول مرة كنت أشاهد كرسي الصالون من غير بياضات هذه
الليلة . وقائس الطقم يلعب في ضوء النجفة الكريستال ..
وكنت أعجس قانس الطقم في لذة وأختلس النظر إلى الضيوف .
كانوا ثلاثة .. جاراننا الأستاذ عزيز .. وزوجته نادبة .. وفاطمة
المحامية ..
وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأنتج حركاتها في اهتمام ..
وأجد من الصعب الآن أن أصف إحساسي بها لأول مرة .
كان إحساسي حيناً أسكت بيدها لأصافحها أني أسك بأصابع

خالية من العظم .. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم
« عرسة » .

وكان صوتها المبلل وهو يحادثني فيه لزوجة تلتصق بالأذن
وبالأعصاب .

ولم تكن جميلة .. ولكن جسمها كان فيه بضاعة
وكان صدرها يكظ من فتحة ثوبها .. وكانت أردافها تضغط على
الفسنان .. وكانت استدارة كتفها وهي تختفي تحت الحرير الأسود المطرز
تثير الخيال والتصور .. وتغريه على تتبع هذا الانسيال .
وكان تكور بطنها تحت الفسنان يوحي بأن لحمها ليس فيه نية
واحدة وأنه محدود متوتر .. فائر .

وكانت عيناها فيها بريق .. يومض .. وينطفئ .. حيناً ينعكس
عليها الضوء . وهي تتلفت ..

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كلماتها مبادرة غير
عادية في النساء .

كانت على عكس زوجتي تماماً
وكانت زوجتي سعيدة بها جداً .. فخورة بشخصيتها وجرأتها
وكانت تقول وهي مبهورة

هذه هي رائدتي . هذه هي القائدة التي كانت تزعمننا في
المظاهرات وفي الإضرابات .. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية .. وكانت
رئيسة الإخوات المسلمات .. ورئيسة فرقة التمثيل . ورئيسة كل
حاجة ..

- فعلاً إن محاليل الزعامة تبدو عليها
كنت أقول هذا وأنظر إليها .. فتبادلي بنظرة ثابتة وعينين فاحصتين
لا تطرفان حتى أنكس بصرى .. فتلاحقني بكلماتها وصوتها المبلل ..

وتبادرنى قائلة فى تحد :

- ما لكم دائماً تصابون بالدوار حيناً تسمعون عن امرأة .. تقود وتأمّر .

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرك فى عينيها :

- لأن المرأة تقود وتأمّر فعلاً بدون حاجة إلى مظاهرات وإخراجات وخطب . لأننا نجها ونسلمها ذقوتنا .. فيصبح الرأى رأياً والكلمة كلمتها .

- أنا أرفض هذه القيادة التى أفوز بها بمجرد تنازلكم . إنه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبكم .. أنا أيضاً لى غرورى .. أنا أريد أن أحتصب حق بيدي .. وأأخذ رغباً عتلك .
- أسمع الكلام .

وتصفق زوجى فى سرور وإعجاب .

- أسمع الكلام .. هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريكم مقامكم .

- أنها لن ترينا مقامنا .. وإنما هى سوف تسعى إلى حتفها بيدها .. سوف تتحول إلى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن نصبح نساء . نجلس فى البيت وتأخذ نفقة ومؤخراً ومقديماً ونسبكة وبذلات أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا .. إنها ورطة يسرنا أن تقعن فيها . أنا لا أمانع شخصياً فى أن أنام فى البيت وأتنازل لكن عن التفقه وعرق الجبين .
- أظن أنه يمكن أن أتحول إلى رجل .. إني أعمل منذ خمس سنوات . أظن أنى أصبحت رجلاً أنظر جيداً ..

وترمقنى برمش عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز :

- إنك لا تغلبين يا صاحبي اسمع نصيحتى إن الطريق الوحيد لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك .. وحيناً تحبك سوف تقتنع بكلامك ..

وتكف عن مناقشتك .

- لماذا تصرون على تصويرنا هكذا في صورة مخلوقات عقوبها في عواطفها .. مخلوقات لا تفهم ولا تعقل . ولا تحركها إلا نزواتها . أنتم واهمون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروّجنا هذا الوهم .. وأدخلنا في ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم شطار وأقوياء ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لتأكل عقلكم ونأخذ ما نريده تماماً كما نفعل مع أطفالنا

وتصفق أمانة وتقف وتجلس في سرور .

- أسمعون ؟ لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا .

ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأصم .

- أنتن يا نساء لا تجدن إلا الثرثرة . إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه في الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة . - وخصوصاً حيناً تكون المرأة محامية مثل فاطمة . إنها لا بد أن تكون مخلوقة من لسان ضاى أصلى .

- أنا شخصياً اعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. وما زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. أنها تنسج في أى مكان إلى الرجل فينبعها وما يلبث أن يصبح زوجها . وأنا في المحكة أنسج بأصبعي وأنا أنرافع .. وأنفذ أعناقكم يا رجال من المشائق .. وهكذا بأصبعي فقط

وتهلل وجه أمانة في سذاجة . وهى تحتضن صديقتها

- أسمعون .. بأصابعنا .. فقط .

ويقهقه الاستاذ عزيز .

- لا فائدة من مناقشة امرأة .. انك تلف وتدور .. ثم تسلم لها بكل ما تريده .. لأن دمها خفيف .. ولأن لذة إرضائها تفوق لذة الحقيقة ..

أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء .. وأسلم .
- برافو يا فاطمة كسبنا القضية .
وتضحك فاطمة وتهتف .
- أشكرك .. والآن . أين مؤخر الانتخاب .
- لقد أعددتنا لك عشاء شهياً
- راتح .. يا أخفى



وعلى العشاء كان في إمكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كتب
وأأمله وهو يتكلم .. ويأكل ويلوح بيديه ..
والأستاذ عزيز قصير القامة . في الأيمن . رأسه صلعاء في
منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين .
وهو حيناً يتكلم يلقي شفثيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزمفه ..
فتبدو شفثاه رفيعتين جداً .. وفه عرسوماً في صرامة وقسوة
وهو يتكلم بحدة .. ثم ينفجر في الضحك من تلقاء نفسه . ويقهقه
بحدة أيضاً .

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة . وكان يخيل إلى
أحياناً أنه يأكل منها هي . ولا يأكل من الطبق لأن الطبق كان
يفرغ ولا يفلن إليه .. ويظل يخلق أمامه حيث تجلس فاطمة إلى
جوارى . ونهداها الناقران ينصبان من صدرها في تكور نسهي
رجراج .. وكنت أحس وهي إلى جوارى بلمس ذراعها . وبذلك
التسور الأملس الحيواني الذي يتسرب الى من جسمها الطرى الذي
يشبه جسم « العرسة » .. فأشعر بالخدر وأترك كتنى لا صقاً يكتبها ثم
أعود فأتوقف وأنفرد بعيداً .. وأنظر الى عزيز .. وهو يلقي شفثيه .

ويُزَمُّه . ويُمَوِّه كالقطة وهو يأكل
وكان الكلام يدور على المائدة عن الحمامة والمفارقات التي تلتاقها
الحمامة أثناء العمل ..
وكانت زوجتي تتكلم عن قضية الوقف التي رفعناها من سنين .. ولم
نصل فيها إلى نتيجة . وتقترح عليّ أن نسلم القضية إلى فاطمة .
لتعالجها بعقريتها وفاطمة تهدي استمداها ثم تنظر إلى ناحيتي
وتهمس :
أخذ فيها ألف جنيه .

- أنا مستعد .. إكسبها أولاً وأنا أعطيك ألف جنيه .
- إنفنا مر على غدا في المكتب . لنبدأ في الإجراءات
ولا أدري لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأني طفل يأخذ ميعاداً
غرامياً وضائقي إحساسي .. ونظرت إليها في رهبة من جانب عيني
وضبطتني وأنا أنظر إليها خلسة ابتسمت .. ثم ضحكت ..
وأشرق وجهها بسعادة أمة . وغرور .. ضائقي أكثر وأكثر .
ونعرت بالفيظ وبيل إلى السخريه منها .. فقلت وأنا أضغط على
كلماتي كلمة .. كلمة

- أن كل أمني الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاء نساء
وأشاهد فشل كل الحمامات بعيني .
وضحكت فاطمة وهرس عزيز رأسه . بيتا أردفت أنا في هدوء :
- إننا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا أنتن نصمغن علينا
ولو كنت قاضياً ووقفت أمامي تبكين حظ المتهم حتى يبع صوتك . فأني
كنت أعطيك البراءة لجرد النسفة .. فأنتن مها أخذتن الشهادات
والدبلمومات وارتفع صوتكن بالجمجمة .. ستات .. ولايا
فأجابت فاطمة في بساطة :

- حينما يصبح المحامي امرأة والقاضي امرأة فسيكون المتهم رجلا ولن
تهمنا القسوة حينذاك لأنها ستتقع على دماغكم ..
- حينذاك سوف نترك لكن الدنيا ونذهب لنعيش في القمر أو في
أى كوكب آخر .
- حقاً ؟! .. أتستطيعون ..
وكانت تنظر الى وكأنها تقول لي من طرف خفى .. إنك لا تستطيع
حتى أن تترك الكرسي بجانبى



كنت أدخل بشرافة بعد العشاء .. وأنظر في الركن حيث توجد
زهرة كبيرة قديمة .. والضيوف من خلف يترثرون ويضحكون .
وفاطمة تحتضن ابني وتقبله .. وصوت البيانو يملو من أقصى الغرفة ..
فأظن أنه الراديو .. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يلففها التراب
من سنين .. ولا يضرب عليه أحد .. ولكنني فوجئت بمدام عزيز جالسة
على كرسي البيانو تعزف
ودهشت لأني طول السهرة لم أفطن الى مدام عزيز . لم أحس
بها .. كانت موجودة معنا طول الوقت .. لكن بدون صوت . لم تتكلم
كلمة واحدة
وتذكرت أنها كانت تجلس عن يساري على المائدة طول الوقت .. ولم
أنظر إليها ..
وكان زوجها عزيز يقف على مقربة .. ينفث الدخان من سيجار
ضخم .. وقال لي عندما رأي .. أن زوجته نادبة عازقة بيانو ممتازة .
وسمعت زوجتي تهتف :
برافو ياتاني . هذا عزف رائع ..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة .. ونظرت إلينا
كان وجهها رقيقاً صغيراً فيه طفولة . وعيناها السوداوان فيها قلق
وشرود .

وكان يحيل إلى أنها لا ترانا وأنها تنظر من خلالنا
وعادت إلى العزف .. وأخفت رأسها الصغيرة خلف البيانو .
أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟
واقتربت من البيانو ..
وكنت أرى شعرها المتهدل .. وكفها المنحدرين وجسمها الضئيل ..
ويدها الصغيرة وهى تنتقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..
وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء . ودارت ببصرها
فيينا ..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق الميهم ..
والشرود .. والضياع .. الكامن فيها
كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين .. وتتكلم فى همس كأنها
تكلم نفسها وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد .
وقال عزيز :

ان زوجتى تقرأ كثيراً إنها دودة كتب .
واخفق صوته فى ضوء البيت .. ورنين ضحكات طفلى وهو
يجرى .. وفاطمة تجرى خلفه ..
ومرت لحظة صمت .. وسعل عزيز سعلتة حادة ثم عاد يحاول
انتمال سيجاره الذى انطلقاً .



فى تلك الليلة حينما أغضت عيني لأنام .. حاولت أن أتذكر الوجوه

التي شاهدتها في الحفلة . وجهاً . وجهاً .. ولكنى لم أستطع أن أجمع
أُستاتها من ذهني

كانت صورة فاطمة تلح على خيالي وتسلسل إلى أعصابي وممها
تميل يحدرفي كل .

صوتها المبلل وملسها الناعم الحيواني . وصدرها النافر
الرجراج .. والبريق المشع في عينيها . وتخصيتها الوقعة . وكلامها
الملي بالاستغزاز .

وأكتشفت أني نسيت تماماً أصدقاء دمشق ومشروع دمشق
وانزلت من ذهني كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط .. هو
فاطمة .. اشتها .. ونفور . وغبط . وخوف .. ورغبة في فاطمة .
رغبة في إيذائها

كنت أتخيل أني أنزق فستانها حتى تصرخ .. وتقول : ارحمني .
ولكنها لم تكن تقول .. ارحمني .. وإنما كانت تضم أطراف جسدها
الريان . وتتنظر إلى نظرة من هذه النظرات التي تبرق .
وكنت لحظتها أفيق من خيالاتي .. وأتذكر الميعاد الذي بيننا فيخفق
قلبي بسدة .

وتوترت أعصابي فلم أستطع النوم .. وظللت أحمق في الظلام ..
وأقلب في فراشي . وأقلل .. وأنفخ .. ثم أحاول أن أطرد كل شيء
من ذهني لأنام .

وتضخمت أصوات الليل المخافتة فأصبحت جلية واضحة في
سمعي . وبدأت أتبع صوت قطرات الماء وهي تدق على الحوض .
وتككة الساعة .. وطنين موتور النلاجة .

وتيفظت زوجتي وسألتني إن كان هناك شيء يؤرقني .. فقلت :
لا شيء . القهوة كانت شديدة وهي التي نهت أعصابي ..

وسمعتها تروح في النوم من جديد .. وسمعت تنفسها يزداد انتظاماً
وعمقاً كلما أوغلت في النوم .. ثم أحسست بذراعها يحوطني وبينام وادعاً
على صدرى . وسمعت فيها يتم كلاماً لم أتيبته . لا شك أنها كانت
تحلم حلماً رقيقاً حنوناً

وسألت نفسى في تلك اللحظة .. ماذا أريد ..

ماذا أريد بنفسى

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعشقه . وصحة
وشباب ومال وجاه . وها أنا ذا أتقلب على فراشى مؤرقاً كشخص
مريض تلمسه الحمى

ماذا أريد .. ماذا أريد !!

وكان السؤال صعباً أصعب من الأرق ..

وشعرت بالصداع ..

وتقلت رأسى جداً .. ورحمت في النوم .. نوم قلبي تشوشه الأحلام
وكلها أحلام من نوع واحد .. يحيم عليها الخوف ..

فأنا في مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط . وفي مرة أخرى أركب
سفينة فتسرق على الفرق .. وفي مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم
هدومى .. وفي مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف انى نسبت
الحذاء .. وأنى سررت طول الطريق حافياً ينظر الناس في وجهى
باستغراب .

وأنا دائماً أقع من آخر دور .. ولا أصل إلى الأرض أبداً وإنما
أظل أهوى من حالى في ذعر أوتك على الاصطدام والتناثر كل ذراع
في ناحية . ولا أجد شيئاً أسلمك به .. ولا أحد أنادى عليه .
وحدى . وحدى في الهواء .. بلا أرض . اقف عليها .
لم يكن نومى نوماً .. كان عذاباً ..

كنت أعاني ..

وحينا فتحت عيني على ضوء النهار .. وشعرت بدفع البيت حولي .
وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأنني خرجت من جب
مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة ..

ولكني بعد ذلك بساعة حيناً وقفت أمام المرآة أنظفح الى طولي
وعرضي وأناقي .. لم استطع ان انسى ذلك الاحساس الذي ظل يأكلني
طول الليل .. بأنني صغير .. وحيد ضائع في الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترقى وأنا نائم وظللت أنتفض من
الخوف كطفل تركته أمه وحيداً في الظلام .

وحينا كنت أسير في المساء الى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت إبطي
ملفات القضية التي انتقنا عليها عاروفى مرة أخرى ذلك الشعور .

وأحسست أني أضرب الأرض بقدمي بشدة وأرفع رأسي في
صرامة .. وأقطب جبينى لأبعد هذا الإحساس بالضعف

وحينا دخلت مكتبها .. وقابلتني ضاحكة .. شعرت فجأة
بالارتياك

وسارعت إلى الملفات . أفتحها .. وبدأت أشرح لها القضية التي
حفظت كل تفاصيلها .. وذاكرتها في البيت جيداً

وظلت تصغي ويدها على خدها وعيناها مسطرتان كالصباحين
الكتافين على وجهي طول الوقت ..

وبعد فترة قضيتها في القراءة رفعت رأسي ونظرت إليها سائلاً :

- هيه هل فهمت الآن المشكلة كلها

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك .

- لماذا تضحكين ؟

- لأنك جد جداً .. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر

منى .. إنك تدخل متجهما وفي يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم
تخبط الملفات على المكتب .. وتفتحها وتقصي في القراءة بصوت عال .
ثم تسألني فجأة كأني تلميذة .. وتقول . هيه .. هل فهمت .. أراهن
أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحككني يانسيخ .

وتراخت أعصابي دفعة واحدة . وايتسمت رغما عني .. ووجدت
نفسى أنظر لها في استسلام . وقد أيقنت أنى اقتضحت .
وأخذت أتلهى بالنظر إلى الغرفة حولى إلى القماش الأزرق الذى
يغلف الكراسى والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية .. وإلى
عبنى فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام ..

وكان واضحا أننا نحن الإثنان لا نهتم كثيرا بأمر القضية .. وأنتنا
كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها .

وقلت وأنا أنسِر إلى الأباجورة :

- أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا
الضعف فينا فقط نحن الرجال .

- لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده . إن الذنب ذنب
النحاتين الذين لا ينعثون إلا النساء ..

وصبت لى الساي في الفنجان أمامى .. وبدأت أشرب وقد عدت إلى
نفسى قليلا .. وزال عني الحرج . فلم أعد بحاجة إلى الكذب .
والكلام .. في القضية ..

قضية إيه ١٢

وقلت وأنا أتلقت حولى :

- مكتبك جميل . لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. إنه
صالون .

- انى أحب ان أسنمتع بحياق وعمل .. إنى أحيط نفسى هنا بكل

الآتية التي أحبا وأنت تجد حول كل شيء .. حتى الراديو .
وأخرجت راديو صغيراً في حجم علبة السجائر .. وأدارته فخرجت
منه الموسيقى .

- يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟

- أجل بكثير .

- إن زوجك رجل سعيد .

وضحكك ضحكة جافة .

- زوجي . لقد طلقت زوجي من زمان . إن الحرية أجل شيء في
الدنيا هل جربت حياة العزوبة ؟

- لا

- أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. إن أجل شيء في الحياة
أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً .

- ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا . زوجة مطلقة
في بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين ؟

- ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم .. كل الناس كذابين ..
ثرنايون متافقون نافهون . أنا أعطى لهم المثل .. وهم يمشون خلق .

ويقلدونى . إن كل جارة من جاراتي تنسى أن يكون لها مكتب مثل
مكتبي وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثل . ولكنها تقول كلاماً
آخر حينئذ تسألها لسانها يقطر كذباً وحسداً أتريدن أن أحسب
حساباً لمثل هذه المرأة . إني أعيش حياة واحدة فكيف أتنازل عنها
لامرأة ثرثرة كذابة . ولماذا لمجرد أن ترضى عني وماذا يساوى
هذا الرضى الكاذب .

وقاطعتها فجأة لأقول في نبرات حادة :

قولى لى .. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك ..

وشمرت أنها تضايقت .. ولكنها أجابت في يرود :

- لأنه رجل مغفل .. مثل كل الرجال المغفلين .. يريدنى أن أكون
جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته .. يريد أن يجرى ويلهو على كفه
ثم يصود إلى البيت ليجدنى راكسة عند قدميه . أقول له يا حبيبي ..
يا ميمودي .. وكأني أرض وقف مكتوبة باسمه .. يتركها خرابة مائة سنة
ثم يعود فيجدها ما زالت خرابة ..
وقلت لها بهدوء :

- هل كنت زوجة مخلصه ؟

فأجابت وهي تضحك ضحكة مقتضية :

- إن الإخلاص تعقل لا داعى له إنه أحياناً يلائم المرضى
والمقعدين .. وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعيشوا
ويستمتحوا ..

ثم انتفضت فجأة لتقول بشيظ

- ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصه ؟ لماذا لا تطالبون
الرجل بالإخلاص .. لماذا تفتفرون له عندما يخطئ ولا تفتفرون للمرأة ؟
- لأن المرأة تحمل ثمة خيانتها لأن خيانة المرأة معناها طفل
غريب في العائلة ..

- وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب في عائلة أخرى .

- عائلة أخرى بعيدة عنا .

- يا سلام .. ألا تحس بأنك تستحق التسنى وأنت تقول هذا الكلام

الفارغ ؟

وعادت إلى الضحك وأردفت في دلع :

- وإذا كانت الأطفال هى كل المشكلة .. فيمكن أن نلجأ إلى موانع

الحمل ..

- هذا هو الانحلال بعينه .. تصورى زوجة تحمل فى حقبة يدها
موانع الحمل كما تحمل أصابع الريح وزجاجات البارفان .. هل يمكن
لخل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت ..
- ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تحملون أمثال
هذه الأنثىاء فى جيوبكم أحياناً .. ألا تحمل أنت الآن فى جيوك أحد
هذه الـ

دعنى أفتشك

وهجمت على فجأة لتفتشنى .. وألممنى المفاجأة .. فتركها تعبت فى
جيوبى وتخرج المناديل .. والحفظة .. وتفتشنى جيئاً جيئاً بدقة ..
وأخيراً سمعتها تقول فى رقة ولطف :
يا لك من طفل وديع صغير .. إنك لا تحمل سوى قطعة
شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت خدى بأصبعها .. وأحر خدائى من الحجل والإحراج
وشعرت بالقيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بجفاء :
- لا تظنى أنى ملاك إلى هذه الدرجة .. إفى فى الحقيقة شيطان على
طريقى أحياناً ..

ونظرت إلى بجبت :

- أحقا أنا لا أصدق .. ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم
شياطين ..

وأردفت فى دلع :

- وما دمت تأكل البونبون والشيكولاتة يا شيطانى .. فإذا تشرب هل
تشرب تليو ..

ومالت على الجرس خلفها لتدقه .

- سوف أطلب لك تليو

- واشتد غيظى من سخرتها .. ولاحظت هى أنى مفتاظ .. فسكت

وقالت بركة :

- هل أملك .. لماذا يؤلمكم يا رجال أن نقول عنكم أنكم قطة صغيرة وديمة ويسركم أن نقول عنكم أنكم وحوش .. أنتم أغبياء .. أنا في الحقيقة لا أحب إلا القطط الصغيرة الوديمة ..

- هذا شذوذ جنسى ..

وضحكت ضحكة خلية ..

- ليكن شذوذاً ماذا يعني .. إني امرأة نائية معدق رقيقة .. لا أحب لحم الحيوانات . وإنما أحب الخضروات الناعمة الفضة مثلك . فقلت بغضب :

- أنا لست ناعماً ولا رقيقاً

- حسناً أنت خشن غليظ أيرضيك هذا أرجوك لا تحاول أن تكون حيواناً إن زوجي كان حيوانا كان طويلاً وعريضا .. وغليظاً كالثور .. وكان يخشع وهو يتكلم .. وكان يمز الأرض وهو يمشي . ومع هذا لم أكن احتمله .. كنت أشعر منه .. إني لا أطيق هذا الصنف من الرجال الذي يختال بمضلاته وشعر صدره .. انه يقرزني .. إني أحلم برجل من نوع آخر رجل رقيق المشاعر مساهم النظرات منلك .. أرجوك لا تحاول أن تلبس أمانى فروة الأسد .. إنك تفقد كل سحرك وتصبح شيئاً مضحكاً .

والحقيقة أنها أغاظتني لدرجة أني بدأت أضحك بعصية . ثم بدأت هي الأخرى تضحك .. وأخذنا نضحك نحن الاثنين في مرج .. وماذا يهم إن كنت أسداً .. أو قطة .. ما دمت ..

وتلاقت أيدينا على المكعب ونحن نضحك ونماسكت أصابعنا بعصية .. وتثبت كل منا بالآخر . كأنه غريق يمسك بطوق النجاة . وخفت ضحكاتنا شيئاً فشيئاً ولكن أيادينا ظلت تماسكة .. ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود .

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران .. أنظر
بعينين مفتوحتين الى النافذة التي تشبه بروازا أسود حول سماء مرقشة
بالنجوم .

وكان الهواء راكداً لزجاً .. والجو حاراً .. وقد تخففت من نيايى حتى
أصبحت أليس جلياًياً رقيقاً على اللحم .. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة
فى النوم ..

ودق التليفون إلى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى إعباء
ونبرات ممطوطة :

- آلو .. أنت .. ماذا تفعل ؟

- لا شئ .. صاحبة إلى الآن . ما الذى يبقيك حتى هذه
الساعة ؟

- متعبة .. مريضة .. جسمى كله مهدود . إلى أحادثك من فرائى
ويطفى تؤلى الأما حادة . وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطانى
حقنة ..

- سلامتك ..

- حلمى . أنا خائفة .

- خائفة .. من ماذا ..

- أخشى أن أموت هكذا وحدي أو أنام فلا أصحو من نومي أبدا .
- ما هذا التخريف .
- البيت حولي يشبه مقبرة في هذه الساعة من الليل .
- أليس ممك أحد في البيت .
- معي الطاهية المجوز وقد سافرت البلد .
- أمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تملئي بيتا وحدك حتى ولو كانت
ممك شهادة حقوق ..
أنت مجرم .. أهذا وقت الشهادة .. أوى بطنى . إن التوبة
ستأودنى إلى خائفة .. أرجوك .
- ألم تسترعى على الحقنة ؟
- بطنى .. بطنى .
- سوف أحضر حالا .
ولبت نياى بسرعة وهولت خارجا .
وفى الطريق كان قلبي يندق ينفذ فى ضلوعى .. وكنت أسأل نفسى
ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقاً .. وهل هذا هو
الحب الذى يقولون عنه ..
لا أنكر أنى أشعر بسعادة فى الجلوس الى جوارها وأنظر مواعيدها
بلهفة .. وأرتب فى ذهنى كلاماً كثيراً لأقوله ثم أنساه .. وأشعر بخمدر فى
جسمى وأنا ألس يديها .. وأصحو على شوق .. وأنام على شوق ..
وأعيش بانتظار نئى ما كل يوم ..
إن العقل يتعب . ما فائدة التفكير فى كل هذا ..
وكنت أدخن آخر سيجارة فى العلبة . وأقنع نفسى بأنه لا داعى
للتفكير فى نئى وأدق الجرس .
وفتح لى تموجى ..

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها .. يحقنها بحقنة ثانية
 ورفعت إلى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم
 يجد شيئاً في الفحص .. وأن المص سببه احتقان بسيط في المبيض ..
 وهي مسألة غير مهمة بالمرّة . ويمكن ان تتشأ من البرد أو من الإفراط
 في الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلاً .
 وخرج الطبيب وبقيت إلى جاتها .. وكان وجهها .. سميحاً .
 وكانت أساريرها مسترخية في راحة .. وقد زال الألم تماماً وحلت محله
 نقاوة تبدو في عينيها .. وركني قها .. وها برتشان في خبت ..
 وأمسكت يدي .
 - يدك دافئة أدفاً من يدي .. هذا يدل على أن قلبك بارد .
 - وبدل أيضاً على أن عقلك فاضئ .
 - سوف أطلع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص
 يا طفلي الصغير .
 وغمزت لي بعينيها ..
 - أما زلت تحمل شيكولاتة وبينون في جيبك . أين كنت تنسبطن
 اليوم .
 - لا نئى يؤذيك غير المرض . لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة
 ومذعورة مثل الفار .. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذه الحقنة .
 - اسكت انها حقنة لذينة جداً . لقد قال الطبيب انها هي الحقنة
 التي يأخذها المساطيل .. وأنا الآن مسطولة .. وبسبوسة .. والدنيا
 أمامي مثل حضن كبير حلو ..
 - إنها ليست الدنيا التي ترزغل عنيك .. إنها الرجل الذي يقف
 بجوارك .
 - ها . ها . ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال .

- ماذا تخمين ادن .
- أحب البتيون والسيكولاتة .. ها .. ها
- إذا كانت حقنة مخدر واحدة تحميك تكلمين هكذا فإنك سوف
تصبحين مدمنة خطيرة .

- أنا مدمنة خطيرة لكل شئ .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة
دنيا .. اسمع .. إن الدنيا مثل الأفيون تماما .. طعامها يصيب الجسد
بالمخدر والهمود .. وروائحها النظرة تدوخ .. وشمها تسطل .. ونسيمها
يدغدغ الحسدود .. وعنها يسكر .. وخرها يسكر .. وكل شئ فيها
يسكر . الدنيا مخدرات .
- أنت أخطر ما فيها من مخدرات .

- اسمع .. إني أحيانا أكون نضوانة لدرجة أنني أنسى أن أجري
عريانة في الشارع .. لا .. لست عريانة تماما .. وإنما بالمايوه ..
وأخرج على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجي .. وكان زوجي يقول
عنى امرأة ساقطة .. ويعطيق محاضرة فى الأخلاق والآداب العامة ..
أنتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون .. كل شئ عندكم عيب وحرام ومحل
بالعرض والشرف الحياة كلها فى نظركم شرف رجل .. أية جريمة
عندكم تفتقر .. إلا أن يتلوث عرض أحدكم وتنسى أخته عين
أو تلمسها يد .. عمركم يضع فى هذه الحرافة .. مغفلون .. أنتم
تضعوننا فى أضرحة وتعبدوننا وتبركون بنا .. ونحن بشر مثلكم تماما ..
نتعرق على لمسة ونظرة وقبلة .. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنويا ثم
روح وبودرة ومانيكير ونحول النوارع الى مراض إغراء تحت سمعكم
وبصركم .. وأنتم تتأججون بالفيرة لأنكم حتى لا تفهموننا .. اننا ليس
لدينا فكرة إطلاقا عن حكاية العرض المقدس هذه .. ولا نفكر إطلاقا
فى أن نحصى شفاهنا من القبلات ونحصى أجسادنا من النظرات .. نحن

نفعل هذا لتضعك عليكم ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما
نحب ونشتهي .. يا دلاديل .. يا بلهاء .

- أنت أسفل امرأة عرفتها ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت
سكرانة ومسطولة لضربتك .

- يا طفل الصغير .. أفي لم أكن في وعي أبدا .. كما أنا الآن ..

- أنت مخرفين .. ولو كنت زوجتي لشنقتك .

- لو كنت زوجتك لما علمت شيئا عنى .. لأنك أبله .. ولأنفقت

عمرك في عبادق .. وإغلاقى التوافذ والأبواب حتى لا تطولنى الشمس
ولضبيت حياتك وعقلك في الغيرة على مدامتك المحسنة .. فاطمة

ونطقت الكلمات الأخيرة في خلاعة وتبذل . فقلت لها في غيظ

- أنت أحمق زوجة في الدنيا .. هل هذا هو التقدم المشهود الذى

حللنا به في المرأة المتحلمة .

- لا بد أن نفعل شيئا لتفيقوا . إن الحياة أوسع وأجمل من هذه

النظرة التناسلية التى تمشون فيها . والنظافة التى تحملون بها . وأنتم
أقنر خنازير .

واستبد بى الغيظ فى تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهرها
بعضف .

- أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة .

وأقلت منى وأطلقت ضحكة هستيرية مجلجلة . وكان واضحا أنها

سعيدة جدا بهياجى وغضبي . ولكنى أسكتت نفسى وعدت إلى هدونى .

- أنتم أطفال : أنولكم الحقائق إلى هذا الحد . لا قائمة من

إصلاحكم .. حسنا يا شيطانى الصغير . لا تغضب .. نحن نساء

طاهرات محسنات عفيفات لا نرغب ولا نشتهي ولا نعجب ولا نحسب

ولا نحس . نحن لفافة عرض موضوعة فى صرة . نحن شرفكم المصون .

وضحكت فجأة في خلعة وقالت بصوت مخدر .

- نحن شرفكم .. ها .. ها .. أليس هذا مضحكا حرصكم على
أن تكون نحن شرفكم .. إن شرفكم أعمالكم يا مغفلون . وليس نساؤكم
أليس عجبا إنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة .. أه لقد
تعبت .. تعبت . رأسى بدأت تنقل .. حلمى .. إن دماغى نقلت
جدا .. لا تركنى أنى أخاف أن أنام فلا أصحو .. أه الشرفة تدور ..
ضع يدك على رأسى أليست دافئة ..

وأخذت يدي ووضعتها على جبينها . وتراخت أجفانها وبعد دقائق
كانت تروح في النوم . وأنا إلى جسوارها .. وصدرها يملو ويهبط
وأنفاسها تخرج مطرة دافئة

وكانت يدها ما زالت تثبت يدي .. وكانت تتقاذفى إحساسات
كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهي تنام في وداعة وقلة حيلة سلبنى
نورق وغبى .. فأخذت أنظر إليها في حيرة وعجب . أين ذهب
البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم . أين ناست النار التى
كانت تتأجج في هذا الصدر .

وكانت تمسك يدي في لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رثما عفى .
ونزلت يدي على خدها وعنقها ولمست صدرها ثم سحبت يدي بسرعة
وقمت في بدنى قشعريرة .

وتذكرت ليلة دخلتى بزوجتى .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة
لسانى وعقدة غرائزى بأن أنرب الويسكى .. وتذكرت الآن وأنا
أحاول أن ألجم غريزى ..

كانت هذه هى النهوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة . كاملة .

عارمة ..

ولا أدرى كم من الساعات ظللت أصارع نفسى وأنا جالس في

الكرسى أدخن .

ولكنى أفقت من هذا الصراع على صوتها فى الفجر يمس إلى
جوارى وعينها وما تبحتان عنى .. وذراعها وما تضافى وتجدبانى إلى
جوارها فى ضعف .

وسمتها تمس وهى تحتضنى :

- إنك رجل غريب .. إن جسمك بارد مثل الضفدعة .
وجذبتنى من عنق . فى دلع .. وغمرتنى بالقبلات .



كل ما أذكره وأنا عائد إلى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى
قائلة : « انت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك . أم أنك ستكذب »
ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرة والحب هامة :
- أما زال فى نيتك ان تشقى زوجتك إذا ضبطتها فى أحضان رجل
آخر .. أم إنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضاً .
ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم .. ولكننى تغيرت
كثيراً .. ولعل فقدت خوفى .

ولعل شيئاً ما قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضاً لأن زوجتى قد
لاحظت ذلك وقالت فى قلق :

- مالك .. شكلك متغير .

لا شئ .

- تمان ؟ ؟

- أبدا

- الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون .

وأمسكت بالتليفون وضربت الفرة .. ورد الأستاذ عزيز فى شوق .

- أهلا يا أخى .. إنت فين .. أنا أبحت عنك من الصبح .

- كنت في مشوار ..

- طيب تعال .. أخطف رجلك وتعال .

ولم أفكر في سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه
الفرصة التي تبعثني عن بيتي قليلا

وخرجت لتوى . لأدق الباب على جدراننا عزيز .. وفتح لي عزيز
بنفسه . وقادني من يدي إلى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى
لماذا كان عزيز يبحث عن طول النهار . كانت برتينة قار حامية تدور
رحاها في الغرفة ..

وقدمنى عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان ..
فلان . والفنان الوحيد الذي أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذي كان
يجلس في مواجهتي وهو رجل عجيب مصوص له شارب كث يغطي له ..
وجلست ألعب وأكسب . وأقرر في سعادة كالقطة التي أكلت جيدا
ووجدت مكاناً ليئاً دافئاً تتمدد عليه ولم أكن أفكر في شيء .. ولم أكن
أرى شيئاً سوى الورق في يدي .. وأبو شنب الجالس أمامي كالصنم ..
يسبح في موجة من الدخان .

وسمعت صوت البيانو آتياً من الغرفة الجيدة .. كانت نافي تعزف

نفس المقطوعة التي عزفتها يوم عيد ميلاد ابني ..

وكانت الأنغام تأتي إلى أذني رقيقة حزينة ..

أين سمعت هذه الأنغام ؟ ..

تذكرت الآن إنها مقطوعة . الطائر السجين .. لفرناندو .

وكانت الأنغام حزينة جداً .. متعالية مترقعة .. كأنها بكاء إله في

سجنه .

وقطع عزيز الصمت قائلاً :

- أتعرفون لماذا نحب القمار؟

وقلت في هدوء وأنا ألب:

- لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف.

وقال أبو شنب:

- إن ألد أوقاتى هى التى أَلعب فيها القمار .. إلى أنسى كل شئ

زوجتى .. وأولادى .. ويبقى .. وعمل .. وأسى ويومى وغدى أليس
هذا هو أجل شئ فى الدنيا

- نعم .. ولكنك تدفع ثمنك لمن هذا النسيان ..

- أنى أنسى حتى هذا أيضاً

وفى الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار .. ولكنى كنت أحس أن
كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جداً بالنسبة لى . وهذا فى
نظرى سبب كاف لأحب أى شئ

وضايقى أن أفكر هكذا .. وفقدت شهيقى للعب .. فأهديت
الجنينيات العشرة التى كسبتها لعزيز . وجلست وحدى بعيداً .. أتفرج
عليه وهو يحضرها ثم يكسبها ثم يحضرها من جديد .. ثم يكسبها ثم
يحضرها ثم يكسبها .. ثم يحضرها ثم يكسبها .

وكان قد بدأ يصبح عصياً وأصبح يريد أن يتخلص منها
فيحضرها إلى الأبد .. أو يلقى بها من النافذة

واستبدت بى الرغبة فى الضحك . فضحكت بصوت عال . والتفتت
إلى أربعة وجوه فى وقت واحد . فى دهشة .

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكاً إلى هذا الحد .
ولكنه فى الحقيقة كان يبدو لى فى تلك اللحظة مضحكاً جداً .

وأشد ما كان يضحكنى هو منظرهم . وسحتهم المقلوبة .. وأعصابهم
المشدودة .

ماذا يريدون بالضبط ١٤ .

وماذا أريد أنا أيضا ١٤ .

وعاد الطائر السجين يفرد . بأتفامه الحزينة .

وانقبض قلبي بشدة كأن يداً من حديد قد أمسكت به واعتصمته .

حتى كادت روحي تخرج مني .

وأحسست في تلك اللحظة أني في حاجة إلى صاحبي لأكلمهما .

وأبكي على صدرها كالطفل .. وأقبلها .. وأحتضنها .. وأفقد وعيي بين

ذراعيها ..

واستأذنت من الجماعة لأتصرف .. ونظر إلى عزيز نظرتة إلى رجل

غريب الأطوار .. وقلت له مازحاً :

- إن جنيتها العنرة جنيتها منحوسة .. إنك لن تستطيع أن

تكسبها .. ولن تستطيع أن تغسرها .. ولن تستطيع أن تنفقها .. إنها

كاللجنة الفرعونية لا حل لها

وخرجت ..

وصافحت أني تسبات الصيف العليقة فأنرت أن أمشي وتركت عريقي

في الجراج .. وسرت استاف الهواء في خياشيمي وأهز يدي جانبي ..

وانظر إلى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً في مشاكلة كأنه دنيا

صغيرة .. لا يفتق منها إلا لحظات . يتلفت حوله ها هو واحد يصرفه ..

وأهلاً وسهلاً كنت فيه . مضى وقت طويل لم ترك . لا بد أن نزورنا يا

أخي . ثم يعود فيخطئ في دنياه ويطلق باب قرته . ويبهر إلى الأعماق

البعيدة في نفسه .

ويهر .. يهر إلى أين !!

وتنوقت إلى شاطئ ..

إلى حبيبي .

كنت في حاجة إلى لحظة راحة . لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير في أي شيء ..

ويبدو أنني منيت كثيراً لأنني بدأت أحس بألم في عضلات ساقى فالتجيت إلى بيت فاطمة .

وكان أول شيء فعلته حيناً وصلت أنني رفعت الساعة وطلبت زوجتي وقلت لها أنني سأغيب لمدة ثلاثة أيام في سفر إلى البلدة لأعمال ضرورية .

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تضحك بصوت خافت وحيناً وضعت الساعة قالت في سخرية :

- لقد أصبحت خنزيراً عريقاً في الحنزية . إنك تكذب دين أن يطرف لك رمش .. هذه قدرة غير عادية .

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المراة وكانت تبدو كحيوانة .. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئاً . وإنما أطالت أطافرها وشحذت غرائزها .. وأعطتها القوة والمرأة .. والوقاحة وتركزت المرأة لتقبلني في ..

وقلت أذكرها

- ماذا ستفعلين في قضية الوقف ؟

فأجابت ضاحكة :

- إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان .. وإنما أصبحت ملمب كرة .. أليس هذا انتصاراً رائعاً .. هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟

- لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتي إلى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد .. إن المشكلة ما زالت باقية ..

ماذا تقول .. إني أذبحك .. وأتخذى على لحمك إذا حدث
هذا إن القضايا عندي تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد
أخرى .. إن المرأة التى تناقضى لم تخلق بعد .. هل تسمع .
- هل أفهم من ذلك أنك تطالبينى بأن أكون مخلصاً ؟
- إني أفهم شيئاً واحداً هو أنى أحبك .
- وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصه لى ؟
هذه مسألة أخرى ..

وجذبتها من شعرها فى غيظ

- تعالى .. هنا ..

ونظرت إلى ثم ضحكت

- يا صغىرى .. إنك تصبح رائعاً حيناً تفضب .. إني أموت فى
غضبك

وراحت تقبلنى وهى تهمس

- إني أغيظك .. أنيرك فقط أنت تعلم كم أحبك ..

وقبلتها فى شفتيها وأنا أقول :

- أنت امرأة مجنونة تماماً .. وأنا أحبك لأنك مجنونة .

- يا شيطانى .. يا طفل الصنوبر الجميل .. يا حبيبى .. يا جنونى .

- أحبك . أحبك . يا أحمق امرأة فى الدنيا

- وأنا أعبدك . يا أحمق رجل فى التاريخ

- يا حيوانة .

- يا مسكين . لماذا تبدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتستهتم . لماذا

تبدو عيناك مسكينتين وأنت تكذب وتغطي وتأمم .. لماذا تبدو بريئاً تعساً

دائماً لماذا لا يفارق الأسمى والحزن عينيك .. لماذا تبدو طفلاً شقيماً

بنياً . إن ضعفك يفقدنى صوابى . كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن

أسمعك . لماذا تبدو قلقاً مستتاً هكذا . ماذا تريد . . ها أنا ذا بين يديك .
اقتلني ولكن لا تنظر إلى هكذا . إنك تنظر إلى كأنك لا تعرفني . تنظر
إلى بلا عقل . بلا أمل . ما الذى يمتصر قلبك . ما الذى يوزع خواطرك
هكذا : ما الذى يبلبل تفكيرك ؟

وأخذت تهزنى بشدة :

- أنظر إلى . . إلى أنا . . لا تنظر هكذا كأنك تعملق فى المسواه . .
حلمي . . حلمي . .

- ماذا أفعل وهذه هى حقيقتى . ماذا أفعل . أنا مسكين
فعلاً مسكين جداً جداً
وبكيت . .

وبكيت بحرقه على صدرها

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بغوطة وقد خرجت لتوها من الحمام .. وشمرها كله مبتل وبرجل ومعقوص إلى فوق . وهي تفكه وترحه وتضع فيه البنسات .. وظهرها إلى ناحيتي .. وأنا في الفراش يجثم على أنفاسي الملل .. وأتمنى من أعماق أن تتركني وحدي وتذهب إلى أى غرفة أخرى .

وسمعتها تدنمن بفمها ثم تقوم وتذهب الى المطبخ . وتنفس الصعداء . ونسيتها تماما .. وفت . لم أتذكر أنها معي إلا حينما أيقظتني وفي يدها كوب من عصير البرتقال ..

وكانت عيناها طيبتين وديعتين .. وقد انطفأت منها الشراسة الفدعية .. وحل محلها خضوع أليف .. وناولتني الكوب .. وقبلتني في خدي وقالت في رقة :

- أتحبني يا حلمي .

فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصاباً :

- نعم .

وشربت الكوب في جرعة واحدة

ونظرت إلىّ في عيني ولكني أبعدت عيني عنها ..

وقالت في نبرة حزينة :

- أنت لا تحبني .

فقلت في هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضي في الكذب :

- نعم ..

- إذن لماذا فعلت كل هذا

- لا أدري .

وسكنت لفترة طويلة ثم قالت في ألم

- ألن نلتق بعد . الآن ..

ولم أعرف بماذا أجاب

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها التكبر يتضعضع أمامي ثم

يتهاوى في بكاء مر ..

وغضفت من خلال دموعها :

- ألم تشعر معي بلذة

فقلت في صدق ..

- شعرت باللذة التي لم أشعر بها أبداً في حياتي .

- إذن لماذا تتركني هكذا .. وماذا كنت تريد لتحبني .. وتضعضعت

الكلمات في فمها من جديد .

ولم أعرف بماذا أجاب .. ولا ماذا كنت أريد منها ولا ماذا أريد

من نفسي ..

- هل أنا قبيحة .

وأزاحت القوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء .

وبحت بعيني في جسمها . ذلك الجسم الذي كان يفتنني ويصيبني

بالدوار كلما لمست .. وأحطتها بذراعي .. ولكني لم أحس بشئ

إطلاقاً .. وبحت في عينيها عن المرأة الجريئة المستهرة الواقعة التي

كانت تنتفض بالتحدى ولكنى لم أجد غير امرأة منكسرة .
وخيل إلى من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات .
ولم أعرف ماذا أحبته فيها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيها الآن .
كل ما أعرفه انى كنت أشعر بالملل .. وبجاجة شديدة إلى أن أصبح
وحدى .

أما هى فكانت تنظر إلى فى أمومة وحنان وتربت على كنى قائلة :
- أنت مسكين ..

وتبكي وتمسح دموعها وتغمغم .
- ولكنى أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبداً .. أبداً .. ولم يحدث
أن أحببت رجلاً كما أحببتك . ولا أعرف ماذا أفعل لتحبى .. ماذا
أفعل ..

وكفكت دموعها وهست فى حيرة
- أريد أن أعرف ما هو الحب .. منذ أيام كنت ألهو منك كما ألهو مع
أى رجل .. كنت فى نزوة سخاوة .. وكنت أنسل .. وأقضى وقتاً
كعادتي .. دائماً .. وما أكثر الأوقات التى قضيتها كامرأة مطلقة فاضية
ليس وراءها مسؤوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتي تنتهى .. وتنتهى
معها نزواتها .. ولكن ها أنذا الآن أمام إحساس آخر تماماً وقت
لا يريد أن ينتهى .. ونزوة لا تريد أن تسبغ .. ماذا حدث لأحبك ..
وما هو سر هذا التعلق الذى يهذبني .. وهذا أنت جالس أمامي ..
ضجر ملول .. تتأفف .. وتكاد ترفضني

- ولهذا غيبي .. انه ليس حباً ولكنه كرامة مجسوسة . وأنونة
مهينة . أنت تريد أن تمدي فى هذا الوقت على أمل أن تنتهى إلى
نهاية تنصفك .. إنه ليس حباً لى .. ولكنه حب لنفسك ..
- أنت مسكين .. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة . إنى

أحبك .. ماذا أفعل لتصدقني .

- أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا أنت مدمنة دنيا .. مدمنة مخدرات اسمها الرجال .. أليست هذه هي . فلسفتك وكلما تك بالحرف
وها أنت تقولين الآن أنك تحبينى وتذوين حبا ..
- إلى أحس بإحساس جديد .. لم أعرفه أبدا
- أليس من الطبيعى أن نشك دائما في الأشياء الجديدة وخصوصاً
حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا
والحق أنى كنت أنعر بشئ ما في شخصيتها لا أرتاح إليه . شئ غير
طبيعى ..

لم تقو اللذة الجسدية التى جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتطلب
على هذا النعور .. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده بينا روحى
تهيم بصيدة نافرة ..
وكانت لذاق يعقها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى
يسوقنى ويجرفنى كالذابة ..

وكنت أفيق أحيانا .. فأتمنى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة
وحينا ضعفت فى لحظة .. ويكبت كالطفل .. وكشفت لها عن
عذائى .. خجلت ..

خجلت جداً كأنى نهرت أمام إنسان غريب لا أعرفه ..
وأحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها
رأت ضمنى هكذا خلصة .. وساورتنى الرغبة فى الفرار ..
ولم يعد وجودها حولى يسطق .. وإنما أصبح يفضى بى إلى توتر مبهم
لا أدرى سببه .

أنا مسكين نعم مسكين .. مسكين ..
ولكنها إنسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرقى الخاصة ..

وتتكسر في أدراجي .. وتبحث في نفسي .

أنا لا أريد عطفها .

وكانت تبكي في هذه اللحظة .. ولكني لم أكن أسمعها جيداً .. كنت
أسمعها بأذني فقط

ولكنها لم تفقد الأمل . وسمعتها تقول في مرارة

- هذه أول مرة في حياتي . يفعل بي رجل ما فعلت ..

وضايقتني هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمني أنها كانت متناورة
منى .

وعادت تقول في مرارة :

- كنت أنا التي ألهو بالرجال .. كنت أنا التي أرفضهم . وأكسر
قلوبهم .. ماذا حدث لي ..

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة .. وغابت فقرة
طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرأة ..
وهي تقول في جفاف :

- أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك .. أنت رجل مثل أي
رجل .. اني أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك ..
ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

- هل صدقت حينما قلت لك أني أحبك .. إنني أضحكك عليك ..
وتلك عاداتي دائماً حينما أريد أن ألهو .. فأنتم لا يمجيبكم إلا الكذب ..
لأنكم أنتم أيضاً كذابين وعواطفكم كاذبة ..
وسكنت فجأة لتقول :

- أنظن أن هناك في الدنيا شيئاً اسمه حب ..

وأجبت في إخلاص :

لا أدري ..

- هناك ليالٍ كذلك التي قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله .. ولا يوجد شيء غير هذا .. أما بقية الأنبياء التي يروى الناس فهي أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. المواقف أكاذيب .. الإخلاص كذبة نستعبدون بها لتكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة .. التي عرفتها ..
وأحسست أيضاً أنها تكذب .. وأنها أيضاً كانت تكذب .. وأنها دائماً تكذب ..

وإن هذا الشيء الغير حقيق فيها هو الذي ينفرد
وإن هذا الشيء هو المسافة الناسعة التي ظلت قائمة بيننا والهوة التي لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتتوق بيننا أواصر الحنان والمودة ..
ونظرت إليها هذه المرة في عطف .. فقد كانت هي الأخرى مسكينة .. وكانت تمسح شعرها في المرأة وتمضغ اللادن في صوت سموع .. وتطرقع بأسنانها وهي تمضغ .. لتحدث صوتاً ..
وكان سكوتنا ثقيلاً كريهاً .. وكان يشوش على أذانتنا أكثر من الضجة ..

وقت من الفراش .. وبدأت أرثدى نيامي ..
وحينما نظرت إلى المرأة .. لم يعجبني وجهي .. كان يبدو بليداً وتذكرت اللحظة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت إلى وجهي في نفس المرأة .. وكان يبدو مشحوناً بشيء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة

كان أجيل بكثير من الآن ..
ونظرت إليها .. كان وجهها هي الأخرى ممثلاً ...
وانتهجتنا إلى الباب في وقت واحد ..

كان كلانا يشعر برغبة في الخلاص .
وعند الباب تصافحنا في يرود .
ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هي مزيج مختلط مشوش من كل المسرات
والآلام التي أحسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ...
وبقينا لحظة صامتين ...
ثم انصرفنا بسرعة ...
وخرجت لأمشي بدون وجهة .. وأنا أنصر في داخل بحرية لا نفع
لها ...

وتذكرت مبعادى مع الخواجة م ترى ... التاجر المعجوز في
البورصة ...

ونظرت إلى ساعتى .. كان باقياً على الميعاد نصف ساعة ...
ومشيت في هدوء في طريق إلى البورصة ...
توى ماذا يريد منى الخواجة م ترى ...
وفي البورصة كان م ترى واقفاً ينظر في ساعته بهصبية وينظر إلى
الباب ... وحبنا رأى تهلل وجهه وأخذنى تحت إبطه ... وخرجنا .
وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض في الصعيد ..
وقلت ..

- الأحوال بخير يا خواجة ...

فضحك وهو يجاوبنى

- أنت دائما تنادىنى يا خواجة .. الظاهر إنك تعتقد أنى خواجة
صحيح ..

- إن مظهرك خواجة فعلا

واستغرق في الضحك ثم أردف :

- يا حبيبى أنا صعيدى ابن صعيدى .. يظهر إنك لم تذهب إلى

الصعيد أبداً إتهم هناك يسمون الذى يلبس بدلة خواجه .. لقد
عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا
نكافح معاً هناك أيام الشباب ..

وأخذنى إلى مكتبه .. وأشعل سيجاراً .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة
- لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه سوياً
إنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف
جنيه . ما رأيك

ولم أجاب .. وإنما أخذت أفكر وقال هو ..

- طبعاً انت فرحان بالقدادين التى ورتها .. وكل هيك أن تنام عليها
مثل كل الأعيان .. إسمع كلامى إن الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن
مكسبها الآن تيمان . وخصوصاً لمن يؤجرها مثلك . إنى أعرف
الصعيد وأحواله إنا الآن فى سنة ٥٦ والأزمة فى قتها الفلاح
يستأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط لأنه
مدین بكل شئ .. مدین يسقى الأرض لمصاحب وابور الماء ومدین
بسميدها لوكيل شركة عبود ومدین بزراعتها لبنك التسليف حتى
محصولها يباعه سلفاً بالبخس للمراى على سلفة عشرة جنيهات يعيش
بها وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النيل زراعته ويفرقها ..
ماذا تستطيع أن تفعل انت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح . إن كل ما
تقدر عليه هو أن ترض عليه قضية إخلاء ثم تأخذ حكا بالإخلاء .
ثم لا يجد الفلاح حلاً سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يستأجر
عليك الحط وعواد .. وهذه آخره الأرض .. ومشاكلها .

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. إنه ما زال يستشير همارته كل
يوم وهو ذاهب إلى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح ام لا يبيعه .. فإذا
رفست يرجلها .. عاد أدراجه ولم يبع شيئاً ..

وأنت تريد ان تضع رزقك وعمرك وأرضك في يد هذا الفلاح .
وتنتظر أن تصبح غنياً .. كلام فارغ . اسألنا نحن .. نحن جربنا من
قبلك كل هذه الأشياء .. إن سر الفنى في التجارة .. وليس في
الزراعة .

- وماذا تريدنى أن أفعل .
- تتخلص من هذه الأرض النحس وتستغل معنا في المكتب .
- وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف التجارة
الخارجية وقبورها

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :
- نبيع أذونات الإستيراد نفسها .. وتاجر فيها .
فقلت في تردد :
- ألا يعتبر هذا عملاً غير قانونى ؟
فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف ..
- وأى شئ حولك قانونى . إن كل شئ غير قانونى . إن المال
الذى تعيش منه غير قانونى ..

إن المائة فدان التى ورثتها عن المرحوم والدك .. كان شراؤها على
يدى . وكانت نقودها من ألعيب البورصة التى فناها بالاستشارك مع
سماسرة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية . والحكاية كانت
لها صدى فى كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرءة .. لقد كتبنا عقوداً
بأكثر مما غللك من أرصدة قطنية . وهذا تزيف .. وهكذا ارتفعت
الأسعار بالكذب .. وكسبنا ألوف الجنيهات والفدادين .

ويظهر أنه لاحظ المخرج الذى بدا على وجهى فأسرع يقول :
- وهذا حال التجارة دائماً ليس في التجارة شئ اسمه قانون
التجارة في حقيقتها هى تنظيم النصب .. والإتراء بمقد الصفقات على

الورق فقط بدون شقاء . وبدون عرق ..

حيثا يكون لك مكتب استيراد وتصدير فإنك سوف تشارك في ربح
المصنع وبيع الدكان .. دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على
مكتبك وتحرر عقوداً أليس هذا أفضل من المتاعفة مع الفلاحين
المعدين في الصعيد .

إن النصب في كل مكان حتى في الزراعة .. وأنت حيثما تقاضى
فلاحاً مديناً لا يملك سوى ذراعيه وتفرجه من أرضك . ألسنت نصاي ؟ !
إن النصب في كل مكان .. يظهر إنك جديد على أمور الدنيا .

إن الدنيا يا حبيبي نصب في نصب
فكر في المشروع الذى عرضته عليك .. لقد كنت أحسب أباك
وأنتفاهل بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتناون معك .. سوف أتركك يومين
ثم أكلمك مرة أخرى ..

وصافق . وأوصلنى حتى الباب ..
وخرجت .. وكل شئ يدور في دماغى كالدوامه .
وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجة مئزى صدمة
لأعصابى .

فقدت الكبير من ثقى .. وإيمانى .. دفعة واحدة .
وأحسست بالقسوة الشديدة ..
كان كلام الخواجة مئزى فيه قسوة سودت الدنيا في وجهى .
كان فيه اتهام لوالدى .. ولتروق .. وللنعمه التى أرحم فيها
لا فائدة .. الدنيا نصب في نصب . تماماً كما تقول فاطمة ..

هل صحيح أن الدنيا نصب في نصب ..
الحق أنى لم أجد حجة أقيمها على كلامه .
أنا نفسى كنت أقوى إثبات لهذا الكلام .. فتذ ثلاثة أيام وأنا أخشون

زوجتي مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح ..
 ومع هذا فقد كنت أشعر ان كلامه كذب .. كذب . الدنيا ليست
 نيراً كلها .. ولا أنا غرير كلئ ..
 القلق يهزني في داخلي .. أنا أتعذب ..
 كلنا نتعذب .. ونبحث عن حل على قدر فهمنا ..
 وذهبت إلى بار ماسييرو .. وطلبت كوباً من النبيذ . وكانت الوجوه
 حولي تثبت لي إننا جميعا مساكين .
 كان كل واحد يحملني في الهواء .. كأنه يطارد ذبابة وهية .
 وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف ، وأحصى الوقت الذي
 تستغرقه الزجاجاة لتفرغ .. وأحصى في دماغي عدد الشوراع وعدد
 البارات .. وعدد سكان القاهرة .. وعدد سكان العالم .. وما يشربه
 الناس من السم كل ساعة ..
 وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكي
 يشربها سكان العالم كل ساعة ..
 ألا يبعث هذا على الإلتفاق .
 وأخرجني البارمان من تصوراتي .
 وهو يملأ كوب النبيذ قائلاً :
 - أتعرف من يصنعون هذا النبيذ الفاخر . لقد رأيت العنب بنفسى في
 بوردو . كل حبة مضية .. كأن الشمس معبأة في داخلها
 - أنا لم أت هنا لأشرب الشمس .. لقد جئت لكي أخذ ضربة على
 رأسى .. ابحت لي عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديمة .
 وضحك البارمان وقرب مني صحناً به جامبون .. وهو يمس :
 - وهذا جامبون طعمه قطع القبيلات .
 ووقف ثلاثة من السحاذين يعزفون البيانولا أمام البار وبدأوا

يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش في
قبضته وكان وجهه مدهونا بالسيبداج وعليه لطفان حراوان : وكان فـه
يضحك . ولكن عيناه كانتا حزبتين جداً

وكان طعم الجساميون ألد من طعم القبلات في فـى . وكانت الموسيقى
سخيفة . ولكن طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان البارمان
واقفاً أمامى يلوى شفتيه في إشمزاز .
- ما الذى يعجبك في هذه الدوئمة .

- إن مقصوها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر ..

- إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدهك على أنغام
البيانولا أنت في حاجة إلى عادة هيفاء عيونها سود .. تنظر إليك
وتنظر إليها وإلى شئ هنا في قلبك يأكله من الداخل .

- حينما يكون هناك شئ في قلبى يأكله .. فإن كل شئ اشربه سوف
ينحول إلى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذاً .. لن أكون في حاجة
إلى من يصير لى عنب يوردد ويعبى لى الشمس في زجاجات . سوف
أكون أنا الشمس التى تشع في كل الزجاجات .. احمد ربنا يا خواجه
على أن قلبى فارغ .. وإنى أكل بعضى فلهذا جئت إليك .. ولهذا
يأتيك الزبائن كل يوم . وتجد رزقك
- أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى .

- أنظن ذلك ..

- وهذا مفعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة في الملح . إن كل
الفلاسفة متخرجون من عندى ..

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنى كنت أريد أن أخرج
بسرعة . واختفى البارمان . ونسيت أن أسأله .. أين يذهب المجتهدون
في الشرب .. هل يصبحون أساتذة في الفلسفة .. أم يصبحون مجانين ..

وكان في الركن رجل عجوز ألامه زجاجة يراندى كاملة .. وكان
يتحرك بصعوبة .. ويسجل سعالاً جافاً .. ويصب في جوفه الكأس بعد
الأخرى ..

وحينما كنت أعود في المساء إلى بيتي .. ويداي في جيوبى .. كنت
أسأل نفسى .. ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده
هكذا ..

وكنت أرى في الظلام وجهه الترابى المريض .. وأسمع سعاله الجاف
وأذكر كلام الخواجة مترى .. بأن كل الناس وحوش يفترسون
بعضهم البعض . ولا أصدقه .. لا أصدقه أبداً .
إننا نقتل أنفسنا
نحن ساكنين

ودخلت البيت .. وغمرنى الضوء الشديد في الصالة .. واستقبلنى
زوجتى منهلة .. وسألتنى عن حالة الزراعة في البلد ..
وتذكرت أنى كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا
أتجنب النظر في عينيها ..

- كل شئ على ما يرام ..

- وماذا فعلت مع علوان ..

- ومن هو علوان هذا

- الرجل الذى أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة .

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك
ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ما حدث من علوان .. وحادث
إحراق الذرة ..
فقلت يارتباك :

هذه الحكاية .. لقد سووها حينما وصلت والمالة الآن هادئة

تماما ..

وقالت وهي تضم يديها إلى صدرى ..

- الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك .

ولم يبد عليها أنها تشك في شئ .

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى ان مدام عزيز عندنا ..

وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر الى الإسكندرية ..

وصاحت : نانى نانى .. لقد جاء حلمى ..

وخرجت نانى . وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفها وشاحاً

أحمر وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه نص من
العقيق

وتصافحنا وعادت إلى مقعدها وكان في يدها بلوفر تشتغل فيه ..

وكانت تنحنى على التريكو وهي تعمل ويتدل شعرها كالبارقان فيخفق
وجهها

ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة

تختلج في اضطراب

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يضطرب

وراء تلك الأهداب ..

وقلت لأخرجها من صحتها

- لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية في الدنيا

فرفعت رأسها الصغير وإبتسمت وتورد خداه .. ونظرت الى في

امتان .. ولم تتكلم ..

وقالت زوجتى ..

- إنها ترسم أيضاً ولها أشتغال كأنشاء رائحة .. إنها فتاة أنظر هذا

مفرش اشتغلته لنا .

- رائع .. رائع .. أين نجدين الوقت لعمل هذا كله ..

وصمتت نائى لحظة قبل أن تجيب ثم قالت وهى تنظر الى الأرض
- ليس فى الدنيا شئ أكثر من الوقت .. إن لى دائماً وقتاً طويلاً
طويلاً أريد أن أعطى منه .
ورفعت رأسها لتتظر إلى نظرة خاطفة ثم عادت تعمل فى مرة
وعصبية .

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينيها ..
أرى الوحدة .. والغربة . والامتسلا الحزين الكامن فيها
وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها
ولم أعرف ماذا أقول بالضبط
ولكن كنت أتمنى أن أسمها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت إلى
الترىكو ..

وقامت زوجتى لتعصر الشاى ..
وقت إلى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبث فى مفاتيحه .
- أجل نئ فى الدنيا أن يكون الإنسان موسيقياً .. أنا كنت طول
حياى أتمنى أن أكون موسيقياً كانت هذه أمنيى ..
وأخذت أعبث برهة ثم قلت :
- ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة ..
وفوجئت بهذا السؤال .
- أنا ! !

وترددت لحظة .. ثم قالت فى وداعة وهى تبسم ..
- كنت أتمنى أن أكون ولداً فقد كنت أرى الأولاد حولى يفعلون
كل شئ . وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شئ .. حتى إذا أردنا أن
نشرى ..

وجامت زوجتى بالشاى .. وأخذنا نشرى فى صمت .. وطلبت من

ناق أن تعزف لنا شيئاً ..
وجلس نافي لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكناً
على البيانو أنظر إلى أهدابها وهي تختلج ..
ولفقت النغم في موجة من الحزن .
وسألتها لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً .. وبكل هذا الحزن .
فقلت أنها لا تدري ..
ولكنها حيناً رفعت وجهها كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من
الدموع ..

كانت الشمس تنام إلى جوارى في شريط دافئ ممد بطول
السريـر .. وكنت أغمض عيني وأحاول الاسترسال في الأحلام الرقيقة
التي أحلمها ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفوني ويدفعني إلى أن
أفتحها وأفركها وكانت زوجتي إلى جانبي . تنكلم كلاماً كثيراً
لا أفهمه ثم سمعتها تبكي وتقول بصوت متهدج :

- أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك .. ولكن ما جدوى هذا
الحزن .. منذ شهر ونحو نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء هل
أعاد حزننا الحياة إلى الميت

وأفقت تماماً على كلماتها .. وتيقظت .. ومسحت على وجهي ..
أفكر في كلماتها كلمة .. كلمة .

هي تعتقد إذن أن عزوفي عنها سببه حدادي على والدي .
ولم أعرف .. هل أفرح أم أحزن لهذه الطيبة وهل هي طيبة أم
غفلة !! ..

لو علمت زوجتي بكل ما حدث في الأيام الماضية .. أنظـل على
طيبتها أم تبصق في وجهي ؟ !
ونمت في تلك اللحظة أن أقول لها كل شيء .. وأن أكانسها
بالحقيقة ولكن جيت .

ودخلت الخادمة وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..
- سيدى . سيدى .. البواب يخطط على شقة عزيز جارتنا من
الصباح ومفئذ حد يفتح ..
- لازم خرجوا
- مش مقول ياسيدى .. عزيز مسافر والست لا يمكن نخرج
الساعة دى .

وقفزت زوجتى من القرائى مرعوبة :
- صحيح . لا يمكن نانى نخرج فى الساعة دى .
وهولت إلى الباب .. وأنا أجرى خلفها والخادمة تعرج
وراءنا . ووقفنا ثلاثتنا نلقى على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد ..
ومرت دقيقتان . وسمعنا صوتاً خافتاً يشبه الأنين .. واصفر وجه زوجتى
وابيض حتى أصبح فى لون التنديل الأبيض .. وأخذت تهرز الباب فى
عنف ..

وترامى الى آذاننا صوت حركة بطيئة .. ثم وقع خطوات تقرب ..
ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب .. وكانت نانى واقفة . أجفانها ثقيلة
وارمة وتحت عيناها غصون زرق .. وهى تنظر إلينا فى دوار النوم ..
كأننا خيالات فى أحلامها

وكان جسمها الصغير يتطوح ..
وأغثتها زوجتى بين ذراعيها ومخلنا .
كانت الغرف كلها نظيفة منظمة .. وكل قطعة من الأثاث فى
مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأياجرة مضيئة .. وعلى الكومودينو إلى
جوار الفراش .. لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة .. وكتاب
لبزك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..
كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوماً لتعالج

الأرق .. فنامت والأباجورة مضيئة .. إلى هذه الساعة من الصباح ..

وهذا كل ما حدث .

وأفرخ رغبنا ..

وجلسنا إلى جوارها ألتقط أنفاسي .. وأنا أشعر بالهرج .. لقد
سرت منها النوم الذي توسلت إليه بالأدوية ..
وفهبت زوجتي لتعد كوباً من الشاي ..
وقت آنا إلى النافذة ألوذ بوحدي من إحساس ثقيل بالذنب .



كنت أفكر في الأربع زجاجات من الأدوية المنومة .. وأنا أقود عريتي
بسرعة في عصر ذلك اليوم . وفي المقعد الخلفي كانته تجلس زوجتي ..
وأبتنا وناتي .. وكنت أسمع نافي تضطحك وهي تداعب ابني .. وأتساهد
صورتها في مرآة العربة .. وشعرها المرتب في بساطة . وعينها العميقين
جداً .

وجلسنا في كازينو على النيل .. وكان النيل في الفيضان . والمياه
عالية كيطن الحامل .

وكنت اشعر بالسعادة وأنا أنظر إلى الملهج الحمراء وهي تجري وتجري
كأنها دم في العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تميل إلى المغيب .. والألوان تتغير بسرعة . وتأخذ
معهما وهج النهار . وتغطي في بحيرة رمادية ..

وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويداً رويداً وتذوب في
ذلك الغمض الرمادي . فلا يبق منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطئ ..

مساحة قائمة بلامعالم

وكنت أقيق من الحذر الذي يبعثه اللون الرمادي في حواسي على

صراخ ابني وهو يجذب أمينة من نوبها ويشاور بيده الصغيرة إلى
المراجع في آخر الكازينو.

وأخذته أمينة .. وذهبت به إلى المراجع .. وهو ينط ويقفز .
وبقيت وحدي مع ناني .. وكنت أنظر في عينيها وهما يزدادان اتساعاً
مع الغروب كعيون القطط .. ويبعثان في نفسي أكثر وأكثر ..
ذلك الإحساس الغامض بالصدق .. وكنت أفكر في زجاجات الأدوية
المنومة على الكومودينو .. وسألتها فجأة :

- هل تتعاطين متوماً على الدوام ؟

- أحياناً حينما يطول بي الأرق ..

- ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكتت ونظرت في وجهي مترددة وقلت مشجماً

- ليس هناك في الدنيا شيء يستحق أن نهم به .. كل شيء ينتهي ..

الماضي يفوت . والحاضر يفوت .. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل
يفوت هو الآخر .. فيم القلق والأرق .. ولماذا نهم بأي شيء .

- انت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .

وعادت تنظر في وجهي برقة وتردف ..

- ومع هذا فأنت نهم وتقلق . من أجل أشياء كثيرة صغيرة

أحياناً أليس كذلك ؟ ؟

- نعم أحياناً لأنكر

- اترى انه لا فائدة من الحكمة .

- ولكني لا أحب أن تتعذب مثلي .

- أهو اهتمام آخر .. هل أنصحك أنا أيضاً وأقول لك أن الماضي

يفوت والحاضر يفوت .. وكل شيء يفوت .. ولا داعي للاهتمام
والقلق بأي شيء أو بأي إنسان .

وسكنت حيناً رأتني مستسلماً حزناً .
كنت في الحقيقة محتاجاً إلى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت
أواسي .. نفسي بلا جدوى وضحكت ..
ولمعت عينها على نبرة اليأس في ضحكى ونظرت إلى .
كانت تبادلني نفس الإحساس المرير بالحيرة
- ماذا نريد بأنفسنا
- نعم ماذا نريد بأنفسنا
وأردفت في حرارة دون أن تفكر :
- أنا أريد أن أحييا
- وحياتك التي تمسيتها
- وحياتي ١١ أي حياة تقصد .
وسكنت في يأس . ولمعت عينها بغشاء رقيق من الدموع . ثم قالت
في صوت خافت :
- ربما اطلعتك على حياتي يوماً ما إلى أكتبها أحياناً أكتب من
فرط اليأس .. ومن فرط الوحدة .
وتأرجعت على شفيتها ابتسامة واهية ..
وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة
وتلاقت نظراتنا .. وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعض .. ولم نتكلم .
وقطع صراخ ابني صممتا وكان يجري نحونا وينط ويقفز .
ومن ورائه أمينة .
وجلست أمينة .. وجلس ابني إلى جوارها وارتفع صوت الملاهي
وفناجين الشاي .. وثرثرة الطفل .
ولكني ظللت مشدوداً إلى نائي طول الوقت .
ولم يتغير الأمر كثيراً حيناً عدت إلى البيت ..

وحينا استغرقت في اعمال مكثي لعدة أيام متوالية لم يتغير الامر كثيرا .

ظلمت مندودا طول الوقت بحبال خفية .. بدنيا اخسرى غير دنيا
عمل اليبوس ومصالح الطعام والشراب وفرثرة كل يوم . هي دنياها
وجودها .

ظلمت مائلة امامي حاضرة في ذهني طول الوقت .
وحينا القيت بنفسي في فراشي آخر الليل كنت اسأل نفسي اية رابطة
من حديد تربطنا . واتذكر علاقتي بفاطمة .. ان الامر مختلف تماما .
ان وجود نافي الى جوارى يفتح لي عالما ايضا امشي فيه .. امشي
امشي ولا اتعب .

انسر بروحي تصادقها وتأوى اليها كما تأوى الى ظل شجرة بدون
هدف . بدون غاية .

وانسر بالاغوار المنيقة خلف عينها . تتكشف لي عن احساسات
اعانها .. وآلام اعيشها واعرفها .. وكأني ادخل بيتي .. واتجول في
غرفتي .. واجلس تحت ضوء مصباحي الاخضر ..
انسر برغبة في الافضاء . وانشاء مكتوفي اليها .. وفرض اسراري
بين يديها .

وتحيل الى احيانا ان بعض كلماتها تصدر عني .. وكأن الحاجز الذي
يفصلنا سقط . وانفتحت فيه نفرة تتصل منها وتتخاطب وتخرج .
احساس غريب يحجم عليه الامان . لا تستعجلني فيه رغبة .. وانما
يتصل في نهر من الحنين دائم الجريان .

هل كنت اجسم لنفسى هذه المشاعر وانا نائم بالليل ؟ ؟

هل كنت احلم واتحيل ؟

لا ادري ..

ولكنى حيناً تيقظت في الصباح كنت اهل هذه المشاعر معسى الى
مكتبي .. واعدود بها الى البيت .. وانظر بها في صندوق الخطابات ..
وانتب وافتح كل الخطابات بلهفة .. وابحث عن امضائها . وقد استولى
على شعور بأنها لابد مرسله الاوراق التي تكتبها عن حياتها . لأعيش
مها .
كنت اريد ان اعيش حياتها معها .



كان الخواجه مثرى يتحدث في التليفون بلهجة انتصار .. وحينما
وقفت في النافذة انتظره .. رأيته يزل من عربة كاديلاك آخر موديل
ويقتحم المكتب .. ثم يقف .. ويشتق قوامه وتلفت حوله بنظرة ظافرة
ويصتف .

.. ما رايك الان يا استاذ .. لقد رفضت ان تشترك معنا في مكتب
الاستيراد . وهذه اول خبطة لنا بضررين الف جنيه . ما رأيك تعالى
افتح دفاترك وقل لى ماذا كسبت من زراعة البصل في هذه المدة
بصرامة ؟

ولم انكر انى لم اتلق مليا واحدا من البلد .
ولم انكر ان المكتب الهندسى الذى اديره فاشل .
ولكنى انكرت بشدة أنى نادم .. ولأنى شاعر بأن نصف عمرى قد
ضاع .. فانا غير مقتنع بالعمل الذى يعمل به انا مازلت غير مقتنع به
وليست لدى فكرة المساهمة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس .
.. الحكاية ليست حكاية فلوس .. اشكرك . هل تسمح وتتازل لى
عن فلوسك .. وارضك واطيانك وتستريح من عنائها .. وتعيش سعيدا
بتقافتك .. ما هى الحكاية اننى يا صديق .

- الحكاية هي ان اعيش كما اشتيتى .. اكسب على طريقي .. واهمل
العمل الذى لا أقتنع به .

- وهل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟
ولم اجب ..

وقال المتواجه مترى :

- انا اكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك . انا لا تعجبني
احوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة
بعد سنوات .

وخطفتى على كتنى قائلاً :

- اسمع ما زالت امامك فرصة للاشتراك معنا فكري .. انا لا اريد ان
اخسر ككثريك . انا اتق بك واحبك .. اسمع كلامى .. الارض
نحس .. اخلص منها انت لم تخلق للزراعة
وخرج مترى .

وحينا كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة .. وانا انظر اليه من
النافذة كانت كلماته مازالت تترجأ أذنى ..

هل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد .. هل انت مقتنع
بالفلوس التى تخسرهما كل يوم فى المكتب .

والحقيقة انى لم اكن مقتنعا باى شئ من هذا انا لم اخلق لهذه
الاشياء .. لم اخلق للزراعة ولا التجارة ..

والحقيقة انى لم اكن اعرف لاي شئ خلقت .
ولم اكن اعرف ماذا أريد بنفسى .

لم اكن اعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى
اسميه الحياة . هى وقوفى الان فى مكتب هندسى فانتسل لا امت اليه
بصلة .

واغلقت دفاترى واغلقت النافذة . ثم اغلقت الباب بعدم اكتراث
ونزلت السلم .. وتركت نفسى اضرب فى الطريق من شارع الى شارع
فى مشية متراخية الى بيتى
ونلتفتى الخيالات التى كانت تصاحبى منذ الصباح .. وتذكرتها
وتذكرت عينيها .. وتلهفت على حديثها
وحينا وصلت البيت .. كان اول شئ نظرت اليه هو صندوق
البريد .. وهناك كانت حزمة من الاوراق تنام فى الصندوق وعليها اسمى
وعنوانى .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانتزعتها فى لهفة وصعدت السلم
وتيا . ثم دخلت غرفتى واغلقت الباب خلفى وفتحت الاوراق كانت
منها وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال :
وألقيت بنفسى فى مقعدى : وبدأت اقرأ ..



اول شخص اعى عليه هو شقيقى الكبرى والوحيدة واول
حادث اذكره هو حادث بين اخى وزوجها .. كل منها يشتم الآخر
ويلوح بيديه فى غضب .. ثم اخى مغمى عليها وانا اصرخ بأعلى
صوق .. وسكان العارة يهرولون لاسعافها وكان ذلك فى قنا مقر
عمل زوج اخى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاما
وبعد ذلك وجهت على ابي الطبيب الكبير الذى يحشاء كل فرد فى
البيت ويرتجف منه .. وانا لا اجسر على الوقوف امام المرأة لا مشط
ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام واغلق بابه من الداخل واسرح شعرى
وجو البيت الملى بالمنوعات .. ممنوع من الخروج .. ممنوع الوقوف فى
البلكون .. ممنوع الذهاب لمنزل خالى الا بصحبة احد اخوتى .. ممنوع
الذهاب الى السينما والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت

حراما . لان ابي شاهد مرة فيلما عربيا وكان رصاصة في القلب .
فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجنا معه لان البطلة التي كانت
مخطوبة احبت شخصا آخر غير خطيبها وسمحت لنفسها في يوم عقد
قرانها ان تغفل بحبيبتها في الشرفة تبوح له بحبها وهنا ثارت نائرة
ابي وظل يلعن الدنيا والمبادئ التي تنادى بها .. واختتم ثورته بان
حرمها علينا ..

ولكنه بالرغم من نسدته وصرامته .. كان طيبا حنوننا يمرض الى
جوارنا اذا مرضنا .. ويكي ليكائنا ويطعمنا بيده . ويض لنا .. على
عكس امي الجافية القاسية وهي تفرج وتدخل على كيفها لا تشغلها
الا شئوننا ونزواتنا وليابها وزياراتها وصديقاتها ولا يحبها ان كنا
نموت او نعشى .

واذكر مرة .. بل عدة مرات .. دعواتها بان يأخذنا الله .. اثنين
اثنين .. اى والله .. كانت تصرخ بأعلى صوتها .. لو كان ربنا يريحنى
ويأخذكو الهى يجيبني خيركو .. وتطلعو كل اثنين في خشة !!
لن انسى هذا اليوم .. ونحن ننظر الى بعضنا في صمت ونرمقها في
كراهية .

وكانت امي هي الصخرة التي تنحطم عليها صلاة ابي ونسدته ..
كان يقضى النهار في الصراخ والشجار معها .. فاذا احتواها الفرائس
بالليل ذابت ثورته وذاب شجاره وتحول الى حمل وديع تهدده على
صدرها وتأمرة وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار .. ان امي تلهو بابي . ونغنى على كيفها ..
كنا في اشهر الاجازة الصيفية نساقر كلنا الى المزة ويبقى والدى في
القاهرة للعمل في عيادته ..

وفي المزة كانت امي ترح على كيفها مع عمى العمدة الوارث

الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل واطلاق النار فى الهواء
واصطحاب امى بالليل والنهار . وضحكاتها ترن فى الحقول .. وخلف
الابواب المغلقة بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا نخاطر على بالتا ان ابى يعلم من
هذا الامر شيئاً .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخفاقة تهتز لها ارجاء البيت
وابى يصرخ بانه سبق ان نهبها الى سلوكها المشين فى العزبة فلم ترتدع
ومادت فى علاقتها الافة .. وانه لا يجد امامه وسيلة الان الا الطلاق .
الطلاق فى سكون حتى لاتضار سمعة العائلة .

وكان معنى هذا الطلاق ان تظل امى كهاى فى البيت .. ويزورنا هو
كالمعاد فى ايام اجازته على الا تقع عيناه عليها ويكتفى بحمراتها من
الميراث والمعاش .. حفظا لكرامته ..

وكان هذا يعنى فى نظر امى اشد عقاب يمكن ان يزل بها . وانه
لاهون عندها ان تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على ان تحرم من
ميراثها فلم يكن لها هم سوى جمع المال من اى طريق .. ولو انها
وجدت سوقا لتبيعنا فيها لباعتنا بأبخس الاثمان ..

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد
الدخول الى غرفة النوم .. وصاقي يا ابن .. حليب يا قشطة .. واللى
كان .. كان ..

ونحول الاسد الى حمل وديع بعد اول قبلة .. وانتهى كل شئ ..
وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى .. وحاله معنا .
وكنا نفتخر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حياته .
وأحيانا حيناً كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى
عينه تتدنى بالدموع .. وهو ينظر إلينا .. ويضمنا الى صدره . وكان

في تلك اللحظات ينير موضوع الحديث .. ويبدأ في اعطائنا درساً في الوطنية .. ويقف لنا ..

يا مصر يا ام الدنيا حيك في القلب سكن ..

ونحن نغنى معه .. وهو يدير وجهه الى الخلف ويمسح دموعه ..
كم أحببت أبى .. كم أحببته .

وبلغت السادسة عشرة في فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعي عن الذهاب الى المدرسة وبقائي في البيت .. ولم تمنع والدتي على شرط أن يوافق أبى على زواجي ..

وتقدم لى في هذه السنة ضابط شاب يكبرني بعشرة سنوات .. يتم الاب والام له ايراد خاسرى غير وظيفته مستقيم لا يضرب الخمر ولا يلعب القمار وسمته في عمله نظيفة . فقبله أبى وجاء به لرؤيق . ورأيت شخصاً عادياً ليس فيه شئ يلفت النظر .. أما هو فقد أعجب بى جداً .

وامتدح جمال وجهى وعيني وشعرى الأسود الطويل وفى الصغير وأسناني المرصوفة .. ويوم البسنى الدبلة لم يفته ان يبدى اعجابه باناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى ..

وكنْتُ سعيدة باطرائه الجمالى .. فهذه أول مرة اسمع فيها انى جميلة جذابة.

وداعبتنى الآمال ..

في المستقبل سوف استطيع الذهاب الى السينما . وسوف استطيع الضحك والفناء بصوت عال على كفى .. وتريح شعري في المرأة ووضع الأحمر على شفقي .. والخروج الى الشارع .. والذهاب الى المصيف ونزول البحر . والسفر .. والسهر وألف متعة .. ومتعة .. وجلس خطيبي يتحدث مع أختي . وفهمت من حديثه أنه ينتظر

الترقية .. وأنه ينتظر ان يعاونه والدى كطبيب كبير متصل بالراى ..
وأنة يعلق زواجه على هذا الشرط
وسقط فى نظرى .. وسقطت أنا أيضا فى نظر نفسى
ان الجميلة الفاتنة كانت الترقية .. ولم تكن عيوى ..
وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة .. كان خطبى أيضا يبحث عن
صفقة .. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى لم يكن
يريد التقرب منى .
وغضبت كطفلة جرحت فى أحلامها ولويت بوزى .. وكرهته ..
وكرهت الزواج .

وحدث فى ذلك الأسبوع ان جاءت اخى من البلد غضبانة من
زوجها وأصرت على عدم العودة فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر
من هذا مع زوج لا تحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيق
الصدر فى سن أبيها
وقامت القيامة فى البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أخسى .
وصراخ أند وتهديدات من والدى .. واجتماعات مع خالى تعقد وتفض .
وبعد خمسة عشر يوم وافقوا على الطلاق على أنه درس فقط يعطونه
لزوجها لكى يتأدب .. فعلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد
وأن يستنكها اعترافا بخطئها بالتنازل عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست
حاملًا وكتبت له ما اراد والفته فى وجهه ..

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهى حتى انفجرت قبيلة غيرت
نظرتنا للأمر كله .. فقد تقدم لأخى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق
لزوجها ومن نفس البلد نساب جميل من سسها كان يتردد على
البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والدى امامها الا أن وافق على الزواج

ليطفى على الخبر ماجور .

ونار خطيبي وبدأ يلمع بكلام جارج .. وثرت في وجهه وطالبته
يفسخ الخطبة ولكنه رفض .. لا لأنه يحنى .. ولكن لأن نتيجة
الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد .
وألمحت على قسخ الخطوبة ففسخها وشمرت براحة عميقة ليست
بعدها راحة .

وأذكر في تلك الليلة . واخى نائمة بجوارى .. أنها سألتني في حزن
وهي تدخل في حضنى عن رأيي في زواجها وطلاقها وكلام الناس
فأجبت وأنا أكذب .. أنت مصنورة .. لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع
رجل لا يحبه .. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة . لما أرسل لك هذا
الرجل لإتقاذك .. والزواج بك ..
فتنهت اخي وقالت :

كم تعذبت .. ما أرحم الله . لقد عوضنى خيرا بعد كل
هذه السنين التي صبرتها . فأنى أعيد زوجي وأتسمر من فرط سعادتي
أنى أحلم .. وانى سأفيع على الحقيقة المرة . اتسمر ان قلبي لن يحتمل
هذه السعادة

أبعد هذا الكلام كنت استطيع البوح لها بما أنا فيه .. ولكنى كنت في
الحقيقة أنام .. وكنت خجلى . وكأنى أنا التي أحمل فضيحتها
وكنت أريد أن أبكى .. وأتكلم .. وأنسكو أحزاني .. ولكن لمن
أنسكو أحزاني . لأنى .. وهى عدوى .. وعارها هي الأخرى على
رأسى .. لأنى المسكين ولديه من عذابه ما يكفيه ويكنى العالم
لم يكن هناك مفر ..

كان لا بد أن أتعذب وحدى .. وأحمل أنا هذه المائلة وحدى .
وكانت النتيجة أنى مرضت .. وضعفت .. ونقص وزنى في شهوور الى

أربعين كيلو جرام .. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى واستمتين
جدا وتحقيقتين ..

وكان والدى متنيا فى تلك اللحظة فى مهمة طبية بالثيا . وأمى
سارحة على كيفها تنط كل يوم الى العزبة ثم تعود سكرانة تنفى فى
غرفات البيت بصوت أجش مبتذل .

وأنا نائمة فى فراشى .. حرارنى مرتفعة . ورأسى تكاد تنفجر من
الحمى .. وقابلى يطحنه احساس ذليل يأس .

ويلقى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من حلم
وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء يفحصونى ..
ثم يرفعون رؤوسهم الى أبى ويقولون فى نفس واحد .. مفيش فايدة
فيصرخ أبى مذعورا .. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا فى فراشه
والدموع فى عينيه .

ولم يصدق أنه كان يحلم .. فقام لغوره ليكتب الى يسألنى عن صحى
ويستحلفنى أن أرد فوراً وبخط يدى ..

وفعلا كتبت له فى الحال .. وكنت متأثرة جدا فظلت أبكى طول
النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين احساس عنيف بالحزن
واحساس عنيف بالسعادة بالسعادة لأن أبى يحس بى ويشعر بى الى
هذه الدرجة .

وفى الصباح فتحت عيني على صوت أبى وقد جاء فى أول قطار ..
وسمعت لئنائه وهو يصعد الدرج ويتنادى بصوت عالى وبلفنة .. نانى ..
نانى

وجريت وفتحت الباب .. قتلقتنى فى حضنه وظل يقبلنى ويبكى ..
وأنا أبكى .. وأضع رأسى الصغير على صدره .. فيهددنى كفرخ
الحمام .

يا أهي .. يا حبيبي .. يا ملاكى .. يا الهى الرحيم ..
عرفت فى تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من أمها
لماذا تشل يده كلها رفعها ليهدم بيته .. لماذا يضعف ويفقد المقدرة
ويصبح كالأطفال السليب الآرادة .. لأنه يحسب أولاده وبيته .. لأنه
يجبى ..

وغفرت له ضعفه .. بل لقد أحيت ضعفه .. وعشت ضعفه .
أأست أنا ضعيفة ؟ أنا .

وبدأت الأقدار تسج لنا أحزاننا جديدة ..
أنجيت اخق من زوجها الجديد بنتا .. وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم
أجهضت .. وبعد الأجهاض بنهور ظهرت عليها علامات سرطان
بالندى رغم انها كانت فى أوج شبابها ولم تعد الثلاثين ..
وأجريت لها عملية استئصال للندى .. وقال الأطباء ان العملية لن
تنفع .. وانها جاءت متأخرة .. وان السرطان سيعاودها فى خلال سنة .
ومضت بنهور من الانتظار المفزع .. انتظار الموت ..
وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهى تضحك فيخيل لى أنها جنة
تضحك . وأدخل فى غرفتى وأبكى بحرقه .. فلم يكن فى امكاننا أن
نقول لها الحقيقة ..

لقد تميت ان يصيبنى الله بدائها ويأخذنى لا ستريح .. فلم يكن
لدى نوى أنملىق به . أما هى فكان لها حب تعيش من أجله .. ورجل
تعبه .. وأبنة جميلة تمسكها .

كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى ..

ولكن الموت لا يختار ضحاياه

واقتربت نهايتها

وكانت الآم العظام تفرى جسدها .. وكانت تصرخ وتتشبث بيدي

هاتفه في ذعر ..

لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .. أنى أفضل ان تطعننى
الآن .. ولا أموت ..
لا أريد أن أترك زوجى .. حبيبى .. سمادى .. لا أطيق أن تأخذ
امراة اخرى منى .

ونمك بزوجهها وتصرخ .

أحلف لى أنك لن تزوج بعدى .. احلف أنك ستعيش تذكرى ..
لا أطيق أن تلمس يديك الخنوتين امراة اخرى .. لا أطيق ان تلمس
شفتيك نسخة اخرى غير شفتى .. ان هذا يقتلنى الف مرة أكثر من
الموت ..

وزوجهها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج ..
أيذا .. أيذا .. مدى الحياة .

ثم يخرج الى الصالة وينهار باكيا ويقول .

لم أعد أطيق عذابها .. ان أيامها تقتلنى .. أتمنى أن تموت
لتسريح .. ولكن كيف تموت .. ان موتها يعنى انتهاء حياتى أنا أيضا ..
يارب .. وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت فى حاجة
الى سهر وقرىض مستمر .

وطلب زوجها منى ومن أمى أن تبقى معها فى البيت .. لتتبادل السهر
عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلاهة بحجة أنها لا تستطيع ان تترك
البيت والأولاد .. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها بالسهر الى
جوار مريضة ..

ومن هى هذه المريضة .. انها بنتها !!

وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..

وأن اسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأهاتها .. آه .. آه .. وأن

أتلقى لهنّاتنا ونشقاتنا على صدرى .. وإن أموت الى جوارها بالحياة ..
وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصببت انا بانتهاء
عصبي .. فأخذنى خالى الى الأسكندرية .
وسافرت وأنا كالمنهولة ..
وبذل خالى وزوجته والمائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى
من حزنى وصمقى وانطوائى .. دون جدوى . ولم يكن أحد منهم يعلم
مدى ما أعانيه ..

كنت كلما اغمضت عيني رأيت أختى ميتة وزوجها يحتفظ بجنتها فى
المزمل ويأبى أن يدفنها لأنها لا تستطيع فراقه . وتشبث به وهى ميتة .



ومرت سنة ونهبتا لرأس البر لنصطاف .
وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام ..
ولا حظت خلالها انه بدأ يغير نظرتى لى فبعد أن كان يعاملنى كمنشقة
صغرى بدأ ينظر الى كأمراة ..
ولم أفهم ما يقصده ..
وحينما عدنا الى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته .. أخفدو يباركون
لى .. على ايه ١٢ وصمعت صديقات أسمى يباركن لها فى التليفون ..
على .. ايه ..

واسى تقول لى أنه شئ طبيعى .. وأنه أحسن زوج لى .. أنا .
أ تزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تمبده واستحلفت بحباها
وعذابها الا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل .. مستحيل .
مستحيل .

افى أموت بلا زواج ولا أتزوجه . مستحيل ..

واجتمعت العائلة حولى .. ليقولوا كلهم فى نفس واحد ..
مستحيل ليه ..

أنت أختى به من الغريبة .. واللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش
وحساتفوق الينت لمن .. البنت الحلوة الصغيرة .. بنت أختك اللى
حتتمرط فى ايد اللى تسوى واللى ما تسواش ..
وهو ماله .. اخلاقه ممتازة .. وفلوسه بالالوف .. وانسانته ..
وعقله .. وحنانه .. وادى انقى شفق ازاى كان بيعامل اختك ..
وصرخت مستحيل .. مستحيل .. انتم بجانين .

ولكنهم احاطوا بى فى حلقة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنق
وسلاحهم العقل .. والمنطق .. وكلامهم معقول واسوأ ما فيه انه
معقول ..

انه شخص ممتاز فعلا .. وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة .
ولكنى لا أشعر نحوه بشئ ..

ومن ادراككم انه لم يكن يعامل اختى هذه المعاملة الا لأنه يحبها
وكيف أسلوب اختى راحتها وهى فى قبرها وأخذ زوجها
مستحيل .. مستحيل .

مستحيل ليه انها حينا تحس فى قبرها ان بنتها .. وديمتها ذهبت
الى يد أبنية .. وأن أختها هى اللى سوف ترعاها فانها سوف تفرح .
أنت مغفلة .

مغفلة .. ربما ..

ان أسوأ ما فى كلامهم انه معقول ..

يارب ساعدنى ..

أهى .. أهى حبيبى

أهى يقول لى بسذاجة .. تزوجيه .. انك أولى به من الضريب .. انه

انسان طيب .. وبينته سوف تكون بنتك .
أخى يقول لى .. تريق حق تمرق شعورك .. انها ستكون آخر
فرصة لك ..
أمى سافرت الى الاسكندرية لعود ومعا البنت .. بنت أخى .
أه من البنت ..
انها حينما رأتنى . القت بنفسها على صدرى واحتضتني في حجب
وغمرتني بالقبلات في كل مكان من وجهى وعنق .. وطلبت ان تنام
معى .

وحينا أخذتنا في حضنى لم يغمض لى جفن طول الليل . كان كلامها
يفتت كبدى .. ويقلب تفكيرى رأسا على عقب . وجاء هو . بعد أسبوع
وفاتحنى في موضوع زواجه بى .. وصارحته بكل ما يدور فى رأسى ..
قلت له أنى لست كنتى قى .. بل أنا على عكسها فى كل شئ .. فى
الطباع والاخلاق والصورة وانى لن استطيع ملء الفراغ الذى تركته .
ونئى آخر أهم من كل هذا .. أنى لا أحبك كما كانت تحبك هى ..
صحيح احترمك واعزك لأنك شخص مثالى وأحبك كأخ .. ولكنى
لا أشعر بحورك بشعور الزوجة لزوجها .
فقال لى :

- انى اكفى الان بهذا الحب .. وسوف اترك للزمن ان يجعلك تحبى
كما تحب الزوجة زوجها .. أما عن طباعك واخلاقك .. فاعتقد انى
افهمك اكثر من أى شخص آخر . وسأعرف كيف أعاملك ..
وأعوضك كل ما فاتك .. أما عن الصورة فصحيح انت مختلفين عنها
كثيرا .. وليس معنى هذا انك وحشة .. ولكن لك جمالك الخاص بك
أما عن الفراغ الذى تركته اختك فانا لم أتقدم الا بعد نفق فى نفسى
وفى شعورى ..

وقلت له :

- أنا متأكدة انك لم تطلب الزواج مني الا من أجل بنتك . والحالة
مهما كانت فهي أرجم من امرأة غريبة ..
فقال في نبرة تأكيد :

- انت مخطئة في تقديرك .. فأنا أولا وقبل كل شيء أطلبك لاني
معجب بك .. وانت تعلمين اني أعيش مع اختي الأرملة . وانها تخدمني
وتخدم بنتي .. ولا يدفعني الى الزواج بك حاجتي او حاجة بنتي الى
الرعاية وإنما يدفعني حيي لك .

وهنا دخلت علينا البنت وقالت في نبرتها الحلوة :

- مالكم قاعدين تتوششون زى المتجوزين كده
بتقولوا ايه .. بابا ؟ .. بتحب طنط زى ما بحبها .. أنا بحبها قوى ما
أعرفش ليه ..

- وأنا كمان بحبها يا حبيبتي .

- خلاص ما دام بابا يحبك وأنا معنديش ماما .. ليه منكوش
ماما .. انتي معنديش ولاد .. وأنا معنديش ماما .. يبق أنا بنتك وانتي
ماما

فالهرورقت عيناى بالدموع . وتلففتها في حضني ..

وقال هو في صوت حزين :

- ألا يكفيك اسماء ثلاثة أشخاص احباء وأعزهم المتوفاة لكي
تشرى بسعادة كبيرة .

فأعلنته موافقتي دون وعي مني .. فقط اشتد علي تغيير السكن
اذ لا يمكن العيش في نفس النقة التي عاشت اختي وماتت فيها
وهكذا تزوجت الاستاذ عزيز .. زوجي .. وبدأت مأساتي الكبرى .

قلت لعزیز انی لا أستطیع الدخول فی شقة اخق المرحومة وعلى عفتها .. فوعدنی انه سوف ینتقل الی شقة أخرى .. وسوف یشترى لی عفتها جدیدا .. ویعطی العفش القديم لأمی .. وطلب منی الاسراع فی اعداد ملابسی الجدیة .. وبدأنا نتشاور فی الامتات الذی سنجدده . وبعد عقد القران خرجنا تمشی باللیل .. وعند عودتنا فوجئت به یشدنی الی غرفة النوم ویغلقها بالمفتاح .. وطلب منی حقه الشرعی . وفوجئت بهذا التصرف من جانبہ .. وخصوصا بعد أن شرحت له حالتي وحاجتی لتغییر الشقة والمجو القديم لتستریح أعصابی . ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة .. كنت ما زلت انظر الیه كأخ احترمه وأعزه .. وكانت مفاجأة ارتبكت لها قاما . وتم اتصالنا فی نفس غرفة النوم الی كانت تنام فیها المیتة .. وعلى فراشها ولم أشعر بلذة ..

لا شیء سوى احساسی بالامتزاز منه وهو یخطف ثیابه .. وامتزاز من نفسی . وأنا أنام وأمتل لكل ما یطلبه .. وقضول وبعثة .. واحساس باللیل .. وبالقرف .. ثم احساس مریر بالذنب فی حق اخق وأنا

أسلبها أعز ممتلكاتها .. وأطلب المتعة في فراشها الذى مانت فيه ..
ونام هو ..

وظلمت أنا صاحبة انقلب على فراش من الشوك واحلق في الظلام
وشيخ الميتة امامى .. وصوتها يجلجل في اذنى .. وهى منتبهة بذراع
زوجها تصرخ .

- أحلف لى انك لن تزوج بصدى يا عزيز . احلف انك ستعيش
تذكرنى .. لن أطيق أن تلمس يدك المنونتين امرأة اخرى .. ولا أن
تلمس شفتاك شفتين غير شفتى . إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من
الموت .

وأنا أصرخ وأبكي الى جوارها واولول . يا حبيبى يا أخشى ..
سوف تعيشين لزوجك ولبنتك . لن تموت أبدا سوف أموت أنا .
وانته لأجدنى على الفراش .. انا بلحى ودمى والى جوارى زوجى
عزيز نفسه . وجسدى ما زال يبلله العار من أناره .

ويصحو زوجى ليذهب الى الشغل ثم يعود قائلاً انه تعب من البحث
عن شقة اخرى بإيجار قديم ويخلو رجل .. ويقترح على تغيير نظام
النسقة وفتح المحاط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر
وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن نبني فيلا ..

- وهل ستبنى فيلا ؟

فيقول .. نعم .. لقد اشترت الأرض فعلاً .. وبدأت أتفق على
رسمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها اذا انتقلت
الى شقة بإيجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى النسقة الجديدة
والفيلا فى وقت واحد .

- وهل سنتهى من بناء الفيلا قريباً ..

- فى ظرف سهور قليلة يا حبيبى . ان الحكاية لن تحتاج أكثر من

شهور قليلة تصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء...
وهكذا صبرنا..

وبقيتا في تلك الغرفة الملعونة.. لم ينجدد شئ سوى عذابي الذى بدأ
يوم بعد يوم ليصبح عذابا رهيبا
يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب الى المدرسة..
وأعد لزوجى فطوره..

ويذهب الى عمله وأبدأ أنا فى الإشراف على البيت.. ويتمكننى
الشعور بأنى لست فى بيتي.. وإنما أنا زائرة غريبة.. لصة.. كل
حجرة تذكرنى بأختي.. كل مقعد.. كل قطعة أناث..
إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه تزوجنى لأنى من
رائحة اختى التى يحبها.. تزوجنى ليمتلل بي حتى يبق فى نفس البيت..
وفى نفس الغرفة.. ونفس الفراش الذى يحبه..
ما أنا الا نسيج.. أما الحقيقة التى غلّوه وغلّ قلبه وغلّ البيت وغلّانى
أنا أيضا فهى جسم الميتة وأنفاسها

أنا لصة سرقت زوجها منها.. بل هى اللصة التى سرقت نفسى
منى.. سرقت حقيقتي.. ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها.
وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر.. وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر..
وينزع الجرح فى داخلى.. وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه
بحكم الواجب.. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور..
وهو لا يشعر بالعذاب الذى أعانيه.. وإنما ينور ليرودى.. ثم يكف
عن الاهتمام بى وبرغبائى.. ويأخذ فى معاملتى كشئ انسراه بالمال..
يأخذ منه حقه الشرعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه.. لا يعبا
باشتمزأى.

ويتحول فى نظرى الى حيوان

وأبحت فيه عن الرجل الممتاز .. والانسان اللطيف الذى تعودت ان
احترمه فلا أجده .

إن المعاملة السرية والمعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش ..
وحرص كل واحد على شعور الآخر .. ونجارب النفوس والأرواح ..
هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيق والحب بين زوجين .. أما المظهر
اللطيف فى التسارع وفى القرام وعمل البلاج فإنه لا يكتفى لجعل من
الرجل زوجا .

إن الرجال يتغيرون كثيرا حينما يظهرون ملابسهم الرسمية .
ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول اننا سوف نحب أزواجنا بمرور
الوقت .

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان .
لم يكن زوجى ذلك الرجل الثيل الجنتلمان الذى تعودت ان احترمه
وحينما خلع ملابسه .. كان مجرد حيوان .
ولم يحدث شئ بمرور الوقت .. لا حب .. ولا حق تعود .. وإنما
ازدادت كراهيتى .. وازدادت نفورى .

وكنت أشعر بالضيق كلما أقتربت منى لياخذ ما يسميه حقه الشرعى
وكنت أحيانا أضغط على نفسى لأرضيه .. وأحيانا أعلنه بأنى غير
راغبة وكان حينئذ يثور .. ويقول انه بشر وبدنه له عليه حاجات ..
لمن أين يقضى هذه الحاجات .. فأثور أنا أيضا وأصرخ بأنى بشر ..
وبدنى له على حق أنا الأخرى .. ولا أستطيع أن أرغمه على طعام
لا يحبه .

وكان يحدث دائما إذا ضغطت على نفسى وامتلئت لمطلبه .. أن أتور
بعد هذا لأتفه الأسباب .. وأبكي .. وأصرخ .
وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه .. وامتنع من أجلى .. فإنه

كان يثور ويتفجر بعدها لأتفه سبب .

وكنت حينئذ وحيثما تبلغ ثورته أشدها أشعر براحة شريرة في داخل . . لعلها أخق الميتة هي التي كانت تتهيج في داخل بضابه . . ولكنى كنت أشعر شعورا آخر واعيا بالطف عليه . . والحزن من أجله . وهكذا كنت أترأخ بين احساسات متناقضة .

وبدأ يلجأ الى أدوية وأساليب طبية ليظل في فترة اتصاله بـ . . وكنت في تلك الحالات أشعر بلذة . . ولكن اللذة كان يعقبها قـ وصداع وآلام نفسية حادة . . وشعور بالنفور والاشمئزاز من جسمي لأنه ينفذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحى وتنعم نفسى . . ودون أن أشعر برضى القلب .

وكنت أحتقر جسمى . . وأعاقبه وأنار منه . . وأنظر اليه باشمئزاز كأنه جسد عاهرة باعته في سبيل قوتها ومصروف يدها . كانت اللذة تنتهى دائما بتكد لي ولزوجى . . وأدرك انه لا فائدة . . فأسلم نفسه ليأس مرير . . وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدى بها وظائفه بدون شعور . . بدون تمهيد . . بدون مقدمات .

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم .

وفى بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض في صدرى بمجرد سماع أذان العصر . . ودخول الليل . . من خوفى . . ومن احتمال طلبه شيئا . وفى أحيان أخرى كنت أنهار وأبكى . . وألطم خدى . . وأشد شمعى . وكثرت رؤيتى لأخفى فى الأحلام .

وكنت أراها فى مرة تفصل نياى زوجى . . ومرة تغيط له جواربه أو تطعم بنتها وتمد لها الشئى واللبن . . وتلبسها مريلة المدرسة . كانت تروح ونحى حولى . . وفى عقل . . وفى خيالى . . وتعيش حياتها

البيتة العادية .. التى هى حياى .. وأنا أنظر إليها .. والى نفسى كأنى
غريبة تماماً .

وبدأت أغرق آلأى فى القسامة .. كنت أقرأ لزفايج . وأطالع
مارسيل بروسى .. وبعض كتب يلك قرأتها مرتين وثلاثة . وأحياناً
كنت أقرأ الجرائد القديمة . وأحياناً كنت أكتب ..
وأحياناً كنت أنلهى بالعزف على البيانو .. وكنت أحب المقطوعات
الحزينة البائسة مثلى .

ولكنى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ .. وكنت أمزق
الأوراق التى كتبها .. وأمزق الكتب .. وأمزق شمسرى .. وأبكى فى
حرقة وصمت .

كل هذا كلام فارغ ..
إن أنوة المرأة هى كل وجودها .. وحينا تفقد المرأة جسمها وروحها
فلا شئ يعوضها .. لا شئ .. لا شئ أبداً
وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأقراص المنومة .. لأنام .. وأقتل
سوس القلق واليأس الذى يأكلنى .
كنت أنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن ..



وأخيراً وصلت غرفة النوم الجديدة .. وجاءت معها أمى .. وغيوت
نظام البيت .. وبعد يومين تشاجرنا وسافرت غضبانة لأنها تريد آخذ
بعض مفارش أخفى بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتى .. ورفضت
بشدة .. وقد أحسست مدى الفارق بيننا .. هى كل تفكيرها محصور فى
آخذ مفرتين أو ثلاثة .. وأنا أعيش أبكى وأصرخ وأحرم على نفسى
حياة وسعادة هى ملكى وحق لجرى أن آخذى اشتيتها يوماً ما ..

وأدركتني رحمة الله وظهرت على بواذر الحمل .. واسترحمت من
اتصالى بزوجى بضعة شهور أنجبت بعدها طفلا جميلا شعرت بالفرحة
لأول مرة حيناً نظرت في وجهه .

وسافرنا الى بور سعيد .. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات
وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأننا التأمت جراحها
ولكنه التأم من السطح فقط لأنها كانت تزداد عمقا يوما بعد يوم ..
ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة . ولاحظت ان حال زوجى
ساءت .. وأن أعصابه أصبحت لا تحتمل أى شئ .. وأنه أصبح ينور
في وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يعملق في وجهى وتلمع
عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس والجنون .. وكان
يجعل لى ساعتها أنه سيقع فاقد التطق ..
وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكتب بسبب
الحالة الاقتصادية .

وكنت أحاول بنسى السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة .. إذا
هونت عليه المشكلة أتمنى بأنى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية لا يحسن
الانفسى .. وإذا حاولت التفكير معه . نهزنى وقال : أنى طفلة فى
تفكيرى .. وأنى لا أفهم شيئا .

وجامت الست الوالدة .. لا لزورى ولكن لتقبض حوالى الخمسة
جنهه تعويضاً عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب إهمال البلدية .
والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد استقرتها من نقسود والدى دون ان
يعلم .

وقلت لها إنى معذورة وفى حاجة لقرشين .. وأن حالة البيت
تعبانة .. وان زوجى عصبى باستمرار بسبب توقف الأعمال فى مكتبه .
فوضعت يدها فى محفظتها .. وأعطتني ثلاثة جنيهات .. ولم أعرف

ماذا أقول .. وبماذا أشتتها وألقيت في وجهها النقود .
وقعدت أصرخ وأبكي . وزوجى يصرخ في وجهى .. دى مش
عيشة .. ايه القرف ده .. أنا ذنبى أيه أستحمل النكد المستمر ده ..
أننى أنفخنق مع أمك .. تقوم هى تسافر ببسولة .. وأنا اللي أشرب
المر هنا .

وأبكي قيزداد صراخه .
وبدأت أفكر جديا في وضع حد لهذا العذاب .
كان الطلاق غير مجد .. فقد فات الأوان وتحولت الى عجوز صفراء
كالخى فى سن الثلاثين .. امرأة ذاهلة تائهة لا تصلح لشيء
ولم تكن لى حياة أخرى احياها أو بيت آخر المأوى اليه .. أمى
تكرفنى وأنا أكرهها وسوف تطردنى من بيتها إذا لجأت إليها .
وإذا طلقنى زوجى قلن يكون أمامى حل سوى الانتحار .
كانت حياتى كلها يأس فى يأس المخرج الوحيد فيها هو الخسوس
والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل في نفسى كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح .
اتحرك في فراغ مفرغ .. وملل قاتل .. وأنام فألبت في فرائى بلا حركة
لا أنا بالناغة أو بالساحية .. وإنما راغبة في حلول شنيع .. أقوم من
رقادى لأرقد من جديد ..

وبدأ يشنمى فلا أurd .. ويسبنى بألفاظ بذينة فلا أجابوه . ويتور في
وجهى ولا أنكلم

وإذا به يصرخ فجأة
إننى ساكنه كده ليه .. عاوزه نفسى .. حد مصطلك عليه .
عاوزانى أتجنن .. عاوزانى أطلقك وأخلص .. طيب أنت طالق .
ووقف يطلب والدى في التليفون ويبلغه أنى طالق .

ونام ليلتها في حجرة أخرى .. وبت أنا أفكر في مصيري ..
لا شئ أصبح يجدي خضوعي أصبح يثيره وهياجى يثيره
وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون الجأ اليه .
واندفعت الى موس حلاقة وجدته أمامى .. وقطعت ثريان زراعى
وأغشى على .. وكان آخر ما سمعته صوت الحانمة وهى تصرخ ..
دم ..

وحينا أفقت كان زوجى راكما الى جوارى يقبل يدي .. وقضى ..
ويبكي ويتوسل . ويقول أنه سيفعل المستحيل لأسعدى .. وأنه لن
يتركنى أبدا معها حدث .



وأنضفوني من الموت لأموت بطريقة أخرى .. ببطء .. في البيت
الواسع .. والحجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغريب الذى يضمنى
كل ليلة على انه زوجى .
والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلامنى .
وكل يوم مثل الآخر ..
وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أسمع انه لا فائدة من أى شئ .. فأخذ
الحبيب النومة لأنام .
ولا أحد يشعر بى ..
أه يا رب ..
ماذا فعلت لأتعب .
وما هو الأمل الذى أتحمل من أجله كل هذا العذاب .
أن الناس يضجون بأنفسهم من أجل شئ .. وأنا .. من أجل أى
شئ أضحي ١٢

انى أخسر كل شئ .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة
أعيشها
وانتهت المذكرات .



وعدت أسلك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من
الأوراق ..

هذه هى نانى وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف
عينها

وضمتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحا وعادت كل كلمة فيها ترن
فى أذنى .. كل شخص يطاردنى .. ويتمتل لخيال .. وكأنى أعرفه من
زمن بعيد .. وكأنى عشت معه

كلهم تجمعوا حولى .. الأب الحنون الذى يتمذب فى صمت .. والأم
القاسية والأخت التى ماتت ويعنت .. بعنت فى دى أنا أيضا ..
والزوج ونانى .

لم يعودوا يتحركون وحدهم .. أصبحت اتحرك معهم .. وأنساركهم
مصيرهم .

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الخيط الذى يربطنا نحن
الآنين انا وهى .

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها
ضاعت نفسه .. وهو لا يجدها .

كل كلمة قرأتها ونفت هذا الجبل الخفى .. وعقدت بيننا ذلك القصران
المحرام الذى لا مفر منه .

انها لا تعرفى .. ولكنها مع هذا قد سلمتى مفاتيح عالمها الخاص
لأدخل فيه
ولعلها عرفتى بما فيه الكفاية حينما نظرت فى عينى فوجدت نفس
العالم الذى تسكنه .. وتسعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن
نتكلم .
نائى .

اشعر بها قريبة منى . اشعر بها حولى .. فى داخل .. الى
جوارى . احبها . بنفس اليأس الذى تكره به زوجها
نائى .
ولم استطع ان اصبر ..
ولم اعرف ماذا افعل بالضبط .. وانما وجدت نفس ادير قرص
التليفون على رقبها
- نائى . اريد ان اراك فى الحال .
وكان صوتى يرتجف من العاطفة .
ولبنت صامتة برهة على الطرف الاخر من التليفون .
وسمعت صوت لثاتها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها .. ثم
اجابت فى استسلام .. وبلا وعى .. فى بأس .. كأنها امرأة تمشى فى
نومها ..
- طيب ..



كانت تجلس الى جوارى فى العربة .. وأنا اسير ببطء فى طريق خال
على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لى :
- هل قرأت الاوراق كلها ؟

- وعشت فيها كلمة .. كلمة .
 - وهل تجد ان لي حلا
 - انا لا اجد لك ولا لنفى حلا
 والتفتت الى في دهشة .
 - وما دخلك انت ؟
 - وما الذى جعلك تلقين بين يدي هذه الاوراق على خطورة
 ما فيها ؟
 لا ادري .. ولكنى كنت اشعر دائما انك لست غريبا عني . كنت
 اشعر انك وحيد تماما مثل .
 وسكنت لحظة ثم اردفت .
 أليس هذا غريبا .. ان يشعر رجل بالوحدة ان الدنيا كلها
 دنيا الرجل .. انكم تستطيعون ان تفعلوا كل شيء .
 - وما جدوى ان تفعل اى شيء . اننا نريد ما تهواه انفسنا ..
 - وما الذى تهواه نفسك .
 - اريد ان اعيش .. اريد ان احب وأنزوج وأنجب ولدا
 - ألم تشعر الى الآن انك قد تزوجت وأنجبت ولدا .
 - انى انضل وظيفة زوج وأب . ولكنى لست متزوجا . ولا ابا
 - ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم احيانا يا رجال .. تستطيعون
 الطلاق والزواج مرة وأخرى .
 - ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. انا اضعف
 من ان اغير حياتي .. وأقوى من ان أقبلها
 - انك تتكلم مثل .. انت الرجل .. من يصدق هذا ؟ !
 وسكنت لحظة ثم قالت :

- ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة . لم يزوجك أحد
عنوة ..

لم اتزوج عنوة .. ولكنى تزوجت خلسة دون أن ادرى ..
- وما ذنب زوجتك .. وما ذنب الولد الصغير ..
- ليس لأحد ما ذنب .. انى لا اشكو احدا
- ها انا الومك .. وأنا غارقة فى الذنب حتى اذنى .. ماذا اقول ماذا
افعل . ما الحل .

- الحل هو ان تعلم .. انا شخصيا ابحت عن حلم انفسى به وأتوه
فيه .. ولكنى متيقظ متيقظ دائما . وهذه اللحظة تعذبني ..
- ولكلك رجل .. أليس كذلك .. والرجل يستطيع ان يفرق همومه
فى عمله .

- ان عملى مثل زوجتى .. غريب عنى .. لا احبه .. انا املا به
وقتى فقط .. ولكنى اريد ان املا نفسى .. ان الفراغ الكبير هنا ..
داخلى .. اشعر انى عاطل تماما .. اشعر بالملل يقتلنى .
- أنك تعذب نفسك بدون داع .

- أريد ان اشعر بالحياس . اريد ان اتحمس .. اريد ان اتحمس
لشئ ولو كان هذا الشئ ارتكاب جريمة .. انى احيانا احسد المجرم لانه
ارتكب جريمة فى غل . انا اريد ان اشعر بالفل نحو اى شئ .
- ألم تحب .. ألم تنهر بالحب مرة فى حياتك .

- احيانا أقتع نفسى اننى احب هذه اوتلك .. ولكنى لا استطيع ان
استمر فى الكذب على نفسى طويلا .

- لا شك انها تكون مغامرات مسلية .
- انها تكون مسلية فى البداية .. لكنها تكون قاتلة فى آخرها حينما
اشعر انى قد فقدت القدرة على السمادة الى الأبد .

- انك تبالغ .. لاشك انك تبالغ كثيرا ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا .. انى احبانا اجد السعادة فى اشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عين ولدى .

كانت تحاول ان تسرى عنى .. وكان يبدو على وجهها انها تنسم بالراحة .. وكنت اشعر بالراحة لأنى وجدت انسانا اياس معه .. وأمل معه .. وأسخط على الحياة معه .
أكان حبا .

أكانت اناية منا نحن الاثنين .. كل واحد يحيد نفسه فى الآخر .. يحيد مصداق حياته مائلا أمام عينيه .. لا أدرى .
كل ما اعرفه انى كنت اريد ان أتكلم .. وأتكلم ..
لم أكن لريد ان أكف عن الكلام .
وكنت اشعر ان الوقت ضيق .. وأن ما أريد ان اقوله كثير .. كثير جدا .

ولم افق من الحمى التى كنت فيها الا حينا نهتفى الى ان الوقت متأخر وأنتا يجب أن تعود الى البيت .
ولكنى ما كدت اعود وأستقر وحدى فى غرفى حتى نسمرت بحاجة تنديدة الى ان اكلمها . وما لبثت ان رفعت الساعة فى تردد ..
كانت وحدها

وقالت لى انها كانت على وشك ان تطلبنى .
نسمرت بسعادة لا توصف .. وقلت لها فى اسف .
- انا اشعر بجعل شديد . لأنى قضيت كل الوقت معك . وأنا اتحدث عن نفسى كانت اناية منى لم اكتشفها الا حينا عدت الى البيت .. اغتفرى لى سوء أخلاق .
- انك دائما تحاول ان تحمل نفسك ذنبا .. لماذا تضطهد نفسك .

- انا لا اضطهد نفسي . ولكنى لا اريد ان أكون هـا يضاف الى هـومك .. لا احب ان اكون طفلا كثير الصراخ يضاف الى اطفالك فـلديـك ما يكفـيك .

- انت لست طفلا .. انت عـجـوز جـدا .. يحـيـل الى انك ولدت عـجـوزا كـهـلا انـي انـسـك في انك عـرـفت الطـفـولة يـوما ما ان الطـرـيـقة الـتي تـحـتى بـها والطـرـيـقة الـتي تـنـظـر بـها هـي طـرـيـقة رـجـل كـهـل جـرب كـل شـئ .. وائـتـى مـن كـل شـئ . وئـس مـن كـل شـئ .

- هـذا صـحـيـح . انا انـشـعـر احيـانا الى عـجـوز جـدا .
- اترك نفسك على سـجـيـتها لا تضـطـهد نـفـسـك بـكل هـذا التـفـكـير .
دعنى أكون طـبـيـنـك النـفـسيـة .

- حاضـر يادكـتـورة . وماذا عنـدك مـن تـعـلـيـمات اـخـرى .
- حـذار مـن المـفـامـرات المـسـلـية .. فان قـلـبك المـجـوز لم يـعـد يـحـتمـلـها
- حاضـر .

- وابـحـث لـنـفـسـك عـن عـمـل نـجـه .. عـمـل مـضـى مـرـهـق لـتـنـغـل نـفـسـك
بـه طـول الـنـهار وتـعـود مـتـعبا لـتـنـام .
- لـقد وـجـدت هـذا العـمـل مـن الـآن .
- ما هو .

- انت .. انت سـتـكـونـين عـمـل المـضـى الـذى احـبه .. وأنـشـغل نـفـسى
بـه طـول الـحـيـاة .

وسـكـت لـحـظـة .. ولم تـجـب . وسمـعت صـوت لـمـنـاتـها . ثم قالـت
باضـطـراب :

- لـقد اخـتـرت عـمـلا يائـسا خـاسـرا .. لـقد اخـتـرت مـما تـتـعـاطاه ولم
تخـتـر دوا .. انت تـريـد المـوت لا الـحـيـاة .

- لقد فقدت القدرة على ان اعيش كما انتهى .. دعيني أمت كما
انتهى .

- انا احمل من الذنوب ما يكفينى . لا اريد ان احمل ذنوبك انت
ايضا .. لقد حطمت حياقي ولا اريد ان احطم حياتك معى . انت
اغلى من ان اختار لك هذا المصير انا اريد لك السعادة
- انت سعادتي .. انا احبك .. احبك ياناقى .
وسكنت . هذه المرة سكنت طويلا .. وسمعتها تبكى بحرقة .

- ٧ -

كنت أقف أمام الحوض .. رأسى تحت الحنفية .. والماء يزلق على
شعري . وعيناي ما زالتا متقلتين بالنوم .
ومن خلقي كانت أمينة تحمل القسوة .. وكنت اسمعها تتكلم ..
وصوتها مبسوح من البكاء طيلة الليلة الماضية . ولكنه ثابت .. جاد .
فيه نبرة شديدة لم أتوقعها :
كانت تكلمني عن الطياف في الصعيد .. وعن خطاب جاء من عند
الحولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان يذهب
بنفسه .. ويأثر العمل .. ويفتش على ارضه وزراعته .. وأنى أهملت
كل شيء .. وأن الفلاحون يسرقونى .. وأنى سوف افقد املاكى
ونرونى اذا لم افتح عيني جيدا . وكانت تتكلم بشدة .
- لا بد ان تسافر للصعيد . وتأثر ارضك بنفسك . ان أباك لم
يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..
وأحست بالحنج من نبراتنا .
وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسؤوليات .
وأخفيت وجهى في القسوة ورحت أحبك رأسى عدة مرات .. وأنا
مازلت امضغ ذلك الضيق الذى استولى على .
ودعيت الى مكتبي . ورحت أقض الخطابات ..

كان لا بد من السفر الى الصعيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا
احد هناك سوى الخول .. وهو يفعل كل شيء على هواه .. يزرع
ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف
وإيرادات .. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له ..
كان من الواجب عمل شيء .

وضايقتني كلمة الواجب .
وحينا بدأت أعد الحقائق للسفر احسست ان ارضي هي التي
تلكني .. ولست انا الذي املكها ..
هي التي تجثم على أكتافي .. وتركني .. وتسوقني الى حيث
لا اريد .. لان الواجب كذا وكذا
أف من الواجب .

الصعيد ؟

مالى انا ومال الصعيد !!

انا اريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذي اخذ
ينبت حولى ..

في الشارع الذي اخضرت اشجاره فجأة وأورقت وأزهرت .
أمام الشباك الذي تتادى منه الشمس .
والتليفزيون الذي يحس في أذني بكلمة الحب ..
ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالحنج يلاني فأنتصغر في
نظري نفسى الى مجرد طفل يبذل الثروة التي جمعها ابوه .
وأكره نفسي وأكره ثروتي .. وأتقى التخلص من الارض التي
تقيدني .

ان ابي ما زال يحكى ..

ان الفدايين الملقاة على أطراف سوهاج .. هي روحه .. هي

رغبته .. هي كلمة الواجب التي كان يطاردني بها وأنا صغير .



وصفر القطار طويلا . وألقيت بنفسى في عربة النوم ..
وأحست بذهنى يصفو وروحي تهدأ .. وذابت الدوشة التي كانت
تأخذ بتلابيبي كما تذوب الرغوة التي تعكر وجه الفنجان .. وبدأ ذلك
النمى الغامض الذى يجبرنى يطفو شيئا فشيئا من أعماقى .
ها أنذا فى النهاية ملقى فى عربة تجرى من بلد الى بلد . من مكان
غريب الى مكان غريب . لا شيء يشعرنى بالألفة سوى إحساس فى
داخل أطويه عليها .. على خيالها .. على اسمها
اسمها يشعرنى بالألفة . بأنى مع نفسى ..
وتذكرت كلماتها وهي تقول لى :

- انت تعذب نفسك بدون داع .. انت تبالغ .. تبالغ كثيرا ان
الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا انى احيانا اجد السعادة
فى اشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عينى ولدى . أنك عجوز جدا .
يعيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التي تخشى بها والطريقة
التي تنظر بها هي طريقة رجل كهل جرب كل شيء وانهت من كل
شيء . ويش من كل شيء .. لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير
وصوتها المنون وهي تمس :

- انت اغلى من ان اختار لك هذا المصير . انا اريد لك
السعادة لقد حطمت حياقي ولا اريد ان احطم حياتك معى .. انا
احمل من الذنوب ما يكفينى .. ولا اريد ان احمل ذنبك انت ايضا
بل احمل ذنبي انا ايضا .. وحطمت حياقي .
انا اريد ان اسمر بالولاء لأنى شيء ولو لدماى .

اريد ان اعثر على رغبتي الضالة .. ونفسي المفقودة .. فيك انت .
ناقي .. ناقي .

وظل اسمها في أذني .. طول الطريق والمجالات تجلجل تحت الوسادة
حيث اضع رأسى .. والعربة تهز واللمبة الكهربائية في السقف ترتعش
وعخبو نورها ثم يتألق .. ثم هدأت مرعة القطار .. وسمعت صوت
الفرامل .. ثم توقف القطار تماما .

وظننت انها محطة . وفتحت النافذة ولكنى لم اجد محطة .. ورأيت
القطار يقف في المرء وسط الحقول .. والدنيا ليل . والظلمة حالكة
ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من النوافذ ونتكلم .. يقاطعنا
بين حين وآخر صوت ذئب يعوى في الحقول .
وقال الكسارى ان هناك عطلا في الخط وأن القطار سيتوقف نصف
ساعة .

ودخلت عربتي ولبثت في فراشى ونظرت في نور الللمبة الذى خبا تماما
ونقلت أجفانى .. ونمت ..

لم أتيقظ الا والكسارى يثق الباب بشدة ويصيح : سهاج .
وقت الى حقيقتى أسويا .. ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت
مسرعا



سلامات .. والله سلامات .. كيف الحال في مصر .. طيبون ..
حلت البركة .

ده الصعيد نورث

الف حمد الله على السلامة .

روح يا واد لعمك بشاى عيط عليه .. جبول له ان اليه وصل من
مصر .. والله سلامات .. والله مرحبا .. مشتاقين .

الاخبارية وصلتنا ليلة البارحة . جينا لتونا في الحلزونة (الأتوبيس)
ومن الهبيح واحنا واجفين عاد .. كل ما يبجي جطر نجول اهو وصل
ونطل ما نلاجيش حد .

ان شاء الله تكون مبسوط .

كان المتحدث هو سركيس افندى .. الكاتب .. والفول الذي يدير
زراعتنا .. وكان يب واقفا كل دقيقة ويشد على بدى وهزها في عنف
ويشف :

ان شاء الله تكون مبسوط

وأنا في كل مرة أهب واقفا مثله .. وأشد على يده .. وأمرى لله .
وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالع البصرة .. أنسيب الشعر ..
يشبه الجرادة .. عيناه ضيقتان حراوان غائرتان .. وهو لا يكف عن
وضع اصابعه فيها بين لحظة وأخرى ويفركها بشدة .
وركبنا عربة بالأجرة اخذتنا الى الارض .
واستقبلنا الحفراء باطلاق النار في الهواء .
وتجمع الفلاحون حولنا وكادت يدى تنخلع من كثرة المرحب
والسلامات .

وكان الجو صحو والسماء صافية .. ولكن كنت اشعر بانقباض ..
كانت الوجوه التي تبسم حولي حضية كالحمة غبراء .. وكانت ابتسامتها
شاحبة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل القراب الذي في الجو ..
والجفاف والسفونة والهواء الراكد .

ودخلنا الاستراحة .. وكان الحفراء ما زالوا يطلقون النار في الهواء
والحام يطير في فزع من أبراجه ويخلق فوق رؤوسنا
وكان سركيس افندى ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه بين
حين وآخر هاتفا ..

انتشاء الله تكون ميسوط ..

وجلست ادخن وفتحت الدفتر أسمى .. وجرت عيني على السطور .
١٢ نفر لمزيق القندان قح بواقع ١٢ قرش يومية للنفر .. المجموع
١٤٤ قرش ..

٦ أنفار لسقية القندان بواقع ١٢ قرش للنفر .. المجموع ٧٢ قرش .
٣ أكياس سماد للقندان بواقع الكيس ٥ جنيه .. المجموع ١٥ جنيه .
احتياجات الماكينة عن اربع سقيات للقندان ٤ جنيه .
أجرة مشال المصقول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا .
اموال مقررة

٢٥٠ قرش رسوم بلدية .

١١٠ قرش ضريبة جراد .

وبررت على الارقام بعيني عدة مرات .. دون ان افهم شيئا .
وخرج سركيس افندي الى الحقل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت
وحدي مع عوضين الفلاح الذي يفرك عينيه .
سألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى الدير البارحة
وأخذ ترايا من كنيسة العذرة وضعه في عينيه .. ثم ابتسم وأردف :
- دى الحمد لله كثير .. دى كانت وائمة البارحة زى عين الجمل ..
قدس ابونا هو الى طيبها

ولم اجد كلاما ارد به على الرجل .. وعدت اقرأ الحسابات ..
١٠ أنفار لرسي الكياوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع ١٢٠
قرش للقندان .

نصف أردب قح نقاوى ببلغ ٣ جنيه ..
وتتحنج عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم ..
- طيبون .. دى الصعيد نوروت .

وسكت قليلا ثم اردف :

- انا لى مصلحة عندك ياسعادة البك ربنا يخليك .

- خير .. يا عوضين .

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..

- والله بدى كام فدان آآجرهم منك السنة دى عشان الزرعة

الشتوية .

- انت مش بتشتغل عندنا

- لا والله انا مأجر كام فدان جاركم فى حوض احمد بك .. وبالى

ازرع كام فدان عندكم السنة بالايجار .

- نأجر لك يا عوضين .. اما ييجى سركيس افندى . نشوف .

- ربنا يخليك ياسيدنا البك .

وخطر لى ان اسأله عن الزراعة .

والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح

ازيه .

- عال والحمد لله .. البركه فيك .

- رميت كهاوى قد ايه فى الفدان ؟

كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كهاوى .

- وكنت مشغل أنفاز كثير ..

- ثمان أنفاز فى الفدان .

وكنت انظر فى الدفتر واقرا الارقام العاليه التى كتبها سركيس

افندى ..

كان من الواضح انه سمر فى كل عملية على اساس انى لا افهم

شيئا فى الزراعة .

وأغلقت الدفتر .. وأنا افكر فى حل ..

وحضر سر كيس افندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت ..
ونجرت في الفيطان المجاورة اسأل الفلاحين .. وتأكد لى ان الخولى
يسرق منى . ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قح وعود قطن .
وعدت وقد صممت على شئ ..
ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهده الى عوضين ..
وقلت لعوضين .. انى سوف اعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه في
مقابل اشرافه على الاطيان وعمله كخولى عندى .
وبت سر كيس افندى ولم يتكلم . ودعا لى عوضين بطول العمر .
وانصرفت الى البندر وأنا اشعر براحة .. وأحس بأنى رددت الامور
الى نصابها .
ولمحت في اللوكاندة
ولكنى تيقظت في الفجر على البموض يأكل وجهى .. وعلى خبر
مفاجيء سرى في كل البلدة .. ان عوضين وجد مقتولا في حقله .
والفاعل مجهول .
وحضر سر كيس افندى في الصباح الى اللوكاندة .. وكان يحمل
طينجة على صدره .. ويصاحبه خفير الفيط .
وقال لى ان عوضين وجد مقتولا الاشقياء قتلوه على تار بايت
مسكين عوضين ..
وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة
- تنوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الارض ؟
- الى تنوفه يا سر كيس افندى .
- امرك يا سمادة الهك .
وعاد ينظر الى نظرتة الجامدة الجافية وعيناه لا يميز لها رمش .
وأجبتة وأنا اتجنب النظر الى عينيه :

.. شوقها انت يا سركيس أفندى .. بس خد بالك من الحسابات
نويه .

- أنا محسوك يا سعادة البك .

ودار على عقبيه وخروج ..

وظلت خطواته تلاحقني وتدوى في اذن مدة طويلة ..

وأدركني اليأس .

ولم استطع ان ابريه نفسى من الجريمة .

لقد قتلت رجلا

بعد ساعة من وصولي الصيد قتلت رجلا

وتذكرت كلام الحاجة مبرى ..

ان الارض هي لحم الفلاح .. والذى يتزعم من الفلاح ارضه ينتزع

لحمه ولا فائدة من ان تقول للفلاح انت تخرق القانون .. فاذا يعنى

القانون بالنسبة لرجل جاهل ..

ان رجله تفوسان في الطين . وحياته ينش فيها المراه وبذلك

التسليف والمالك والمستاجر وسركيس افندى .. كل واحد يطلق عليه

الرصاص .



ومر يومان على اقامتى بالصعيد .

النتيجة على المانط تقول انى في عام ١٩٥١ ولكن كل شئ

حولى يمشى بيظه جدا .. عشرات السنين وراء التاريخ

القسوة في كل مكان .. في الحر .. في القراب .. في الجفاف .. في

الارض .. في الفيضان .. في الوجوه .. في العيون .. في الثمن الذى

يدفعه كل انسان في مقابل اللقمة ..

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل ان يعى وجوده .. ثم يئس يلهث ويجر قنميه .. ويصزق .. ويحترق .. ثم ينزعه جاره على قيراط يرسم ويقتله ..
والفلاح الآخر المخطوط الذى يملك فدانا ويعيش كالجرادة على حافة القرعة . لا يعرف السينا ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يضع حفته من تراب العدة فى عينيه .. ويعطيه رجل مبروك حجابا يطلقه على صدره لينسى . بيتا يذهب المبروك ليداوى عينيه فى القاهرة عند طبيب الميمن .

والتاجر الرقيق العبيط الذى ينظر الى البورصة كما ينظر الى السماء والقدر .. وكرامات الاولياء .. ويفلس بقاء .. ويموت بقاء كما يموت حمارة دون ان يعرف السبب .
وايمن العمدة الوارث الذى يتفق امواله على راقصة فى مصر ويموت من الحمر والمقدارات .

كل هؤلاء يتبعون ويتعاونون .. كأنهم فى غابة .
قسوة الحياة تبرز ارواحهم .. وأخلاقهم .. وتحولهم الى أجلاف غلاظ

وقد أحسست بهذه الخلطة تتسرب الى وتدفعنى الى رفع صسوق بالسباب والشتائم .

سنة واحدة أعيشها هنا .. وأصبح مثلهم .. اتكلم بلفظة .. وأقتل وأسرق وأتعب ..

لقد نسيت ذقنى فلم أعد أحلقها .. ونسيت هدامى .. ورباط عنق .

ونسيت الرجل الذى قتل من اجل .. عم عوضين .. الذى اطلقوا عليه الرصاص .. لأنى اخترته ليدبر زراعتى .

من الذى قتل عوضين ١١

سركيس افندى ١٢

الخفراء بتحريرى من سركيس افندى ١٣

انا بقباقى ١٤

الفدادين التى جئت اجرى من القاهرة لأجمع ايرادها ١٥

الحر .. التراب .. الجفاف .

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول .. ولكنى ارى

المتهمين جميعا وأنا احدثهم .. ليس فيهم مجهول واحد ..

ليس لى أن اتحدث عن الغلظة .

ان القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المفسدة بالدم

وإنفاقها فى هدوء فى بارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل أشد

غلظة ..

وشعرت باليأس .. وبالنفور ..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتى أرباحها كل عام .

وشعرت انى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية ..

منذ ان وضعنا يدينا عليه .



وعند الظهور .. كان سركيس افندى يتجول فى غيط القطن فى

مظاهرة من الاولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون .. وكان

يحاول ان يلمنى على حسن ادارته وحزمه .. يطارد الاولاد ويشغل

فيهم ويمرر خلفهم بعضا قصيرة من الحيزران .. ويضربهم .. وكانت

الشمس مشرقة فوق رؤوسنا تلعبنا بشواظ من نار ..

وأغنى على احد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحملوه الى

الترعة ليرتسوا على وجهه الماء .. وكانت يده التحيلة مضمومة الى

صدره تقبض على كسرة خبز جافة .
واكتفيت بما رأيت .. ولم انتظر نزول المساء .. واخذت قطار العودة
الى القاهرة .. وقد صممت على ان اطلق هذه الارض الى الابد ..



وكان اول شيء فعلته حينما وصلت القاهرة هو انى كلمت نانى
لأقول لها :

- سوف اترك الارض نهائيا .. سوف ابيع فدانين وافتح ورشة
لاصلاح السيارات اعمل فيها كمهندس .. عملي الوحيد الذى أتعنه .
انا لا اناهى للأرض .. ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق
ان رؤية القسوة ترهقنى .. والاستمرار فى هذه الحياة التى اختارها
ابى لنفسه مستحيل .. مستحيل .. بالنسبة لى .
- وحياتك . والمستوى المادى الذى تعيش فيه .. كيف نترك
نروتك ولن تتركها

- انى لا اتركها .. ان الفلاحين يضمنون يدهم عليها .. يستأجرونها
ولا يدفعون مليا .. ولا يستطيع ان أقاضيم . لقد تعبت .. تعبت من
المناظر التى رأيته ..
- انت طيب اكثر من اللازم ..

- لست طيبا .. ولكنى لا استطيع .. لا استطيع ان اكون شيئا آخر
غير نفسى افضل ان اعيش حياة صغيرة املكها .. عن ان اعيش
حياة كبيرة تملكنى .. اريد ان اكون حرا .. اريد ان اقطع صلتى بكل
ما يفرض على واجبات لا احبها .. انا اكره الواجبات كلها .
- وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها .. انى احاول الخلاص
من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا استطيع . لا استطيع سوى

ان أجن فقط الجنون هو النيه الوحيد الذى وصلت اليه .. وأنا
لا اريد لك ان تجبن مثل . تستطيع ان تتخلص من أرضك .. ولكن
ستبقى هناك واجبات على كتفك لا خلاص منها
- نافي ارجوك ساعدينى .. لا تسدى أمامى المنافذ .. لا تبقى فى
وجهى حائطاً غليظاً هات يدك لتحفر سوياً حفرة فى الجدار نهرب
منها الى عالم نجه .
- نهرب الى اين .. انت تعلم .
- لا توقظينى اذن . دعينى احلم .. دعينا نحلم معا .. نافي ارجوك .
- يا حبيبى .
- نافي ..
- يا حبيبى ..
- اريد ان استريح . ان اضع رأسى على صدرك وأستريح
اجد نفسى بين ذراعيك .. ان اشعر بلحظة رضى .. انا الهت من التعب
هارباً من عالم لا اعرفه .. ولا احبه .. اليك انت .
- يا حبيبى ..
- تعالى يا نافي ..
وسكنت وسمتها نيكى ..

- ٨ -

كنا وحدنا انا وهي .

وكنت انظر في عينيها في شغف .. ولا اسمع .. وأتطلع في ملامحها
الدقيقة .. وتعبيرات وجهها وخلجاتها وأستشف نفسها .. وأهيم
في وجودها وأندمج فيه في استمتاع وتلذذ عميق .
وكانت نظراتنا تتأسل وتتشبث ببعضها وتلوذ ببعضها وتسمى
كئي الى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه في حنان ..
ثم ارفع يدها الى شفتي أقبلها وتنام شفتاي في باطن يدها ..
وأشعر بها تقبلي في خدي .. وأشعر بشفتيها تبحثان عن شفتي وهما
ترجفان ..

وتلتق في فرحة .. ونفيس عن وعينا وعن الدنيا ونفوس في
بعض .. في فيض من النشوة . منتهى النشوة ..
احبك .. احبك جدا .. احبك طول عمري .. احبك الى ان اموت
وبعد ان اموت .. وقبل ان اولد .. احبك .. احبك .. وما لزوم الكلام
والشعور يخفقنا .. يسكننا

نافي . انا لا اريد شيئاً سواك انت .. سوى هذه اللحظة .. ننتظر
قليلاً لأنعم بها انا لا اريد ان اتيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت افى
اجد فيها سبب وجودي .. لقد خلقت من اجل هذه اللحظة .. خلقت

لاكون لك . نافي . هذه لحظة تبدأ من عندها افراسي وألامي

وتلتق شفتانا في فرحة .. في لفة ..

هل انا احلم .. قبليني لافيق .. بل قبليني لاحلم اكثر ..

- يا مجنون .. يا مجنون -

- انا لست مجنوناً انا كأعقل ما اكون طول عمري

- اذن فأنا المجنونة .. أنا انا .

- انت حبيبي

- يا حبيبي يا مجنون ..

- فيم تفكرين ؟

- افكر في اني ولدت من جديد .. وأنى اعيش معك في عالم ليس

فيه سوانا عالم لا ينظر الينا في حسد وحقد .. عالم لا يوطننا من معادتنا .

- لا اهمية للعالم ما دمنا معا

وأسكت بي في خوف وهي تنحسني لتأكد من وجودي بجوارها
وهست :

- لماذا تتأخر الآمال هكذا دائماً .. لماذا تسقط الامطار بعد ان يموت
الزروع من الجفاف .

- ان الزروع لم يميت .. انه ما زال يانما مخضرا

ويكت على كفتي وهي تقول بصوت متهدج :

- يا وهى الجميل .. يا وهى الجميل ..

- أنا لست وهلك . انا حقيقتك .

- اهدا .. انت وهى .. انا لا استطيع ان اسمك بك .. انت نفر

منى .. لا اجدك بجوارى ..

- انا بجوارك دائماً .

- انت فى وهى . فى قلبى .. فى مهجتى .. وسواد عيى .. ولكنك
لست فى بيتى .. لست فى واقى . عرق كفيك ليس فى الفراش الذى
انام فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادى .. ثيابك ليست مع ثيابى
فى سلة الغسيل .. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على مائدتى
قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على ارض غرفتى . ولدك
ليس منى .. وولدى ليس منك .. صوت سعالك الحاد لا اسمعه فى
حجرات الباردة أنا اعيش فى غربة .. اعيش على وهم وجودك على
امل رؤيتك .. هل تعرف كيف احبك . هل تعرف كيف تحب المرأة
الرجل .. انها تحلم ان تكون سكته وطعامه وشرا به . تحلم بأن تجمع
شئاته على راحتها ..

ان الرجل يلثم المرأة فى شفتيها ثم يعض فى طريقه . اما المرأة فهى
تعيش فى تلك القبلة .

أتعرف لماذا أتيت معك الى هنا .. لأتزوّد من وجودك بمؤونة اعيش
بها لأزوّد وهى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته ..
لأتذكرك اكثر .. وأتعرف عليك اكثر .. وأخاطبك فى لحظات وحدتى
وصمتى ولكنى لن اعود الى هنا لن اعود الى لقائك ابدا .. لأن هذا
ليس حبنى .. ليس انا . ليس انا .

واخذت تهزنى بشدة . وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج . هذا
ليس حبنى ليس انا .. لن اعود الى هنا ابدا
ثم انفجرت تيكى بمرارة ..

وصرخت وانا اضمها الى صدرى فى حنان :

- سوف نتزوج .. سوف نتزوج .. سوف أطلق زوجتى .
وأنزوجك بعد أن يطلقك زوجك .
ونظرت الىّ فى فزع هاتفة بين دموعها .

- مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل . لا أستطيع .
ابدا ..

- ولماذا لا تستطعين .. الا تحبيني ..

ومست في ضراعة ..

- ناني .. ناني .

- اخاف من الله .. ومن رجل .. ومنك .. ومن عيون اولادك ..
ومن عيون اولادى ..

- كل هذا لن يمتنى .. ولن يملك .

- هناك شيء فوق كل هذا يمتنى انا ..

- ما هو ..

- نفسى .. أخاف من نفسى .. إن الماضى يتغلغل فى حواسى .. أنا
لم أتزوج زوجى كرها ولا غصبا .. لقد .. ارتضيته .. صحيح انى لم
أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشرته . إن الرجال لا يعرفون العشرة كما
تعرفها النساء . لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع .. ولكن العشرة
تتغلغل فى الحواس . فى الدم .. فى اللحم .. إلى أن أكون خالصة
لك .. سوف تصود حياقي كلما دق علينا ولدى الصنغير باب غرفة
النوم .. وكلما تطلع إلينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل .. لن أستطيع أن
أسكته حينما يقول . بابا

انه أفعال التى تلهث خلقى ..

وسكنت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

- وانت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة
لتنظر فى عينها وأنت تلقى عليها العين .. وحينما يمسك الطفل بذيلك وأنت
خارج .. كيف ستجد القوة لتتفضى يده الصغيرة عن نوبك .. انه
أعمالك التى فعلتها .. كيف تنكرها ..

- لقد حدث كل هذا خلصة دون ادري .
 - ولكنه حدث ..
 - سوف اتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..
 - سوف يتحدى الدنيا كلها ولكنك لن تستطيع ان تتحدى نفسك .. لن تستطيع ان تتحدى أفعالك .. ان أفعالك هي ذراعاك .
 - سوف اقطع ذراعى لأصل اليك .
 - لا احب ان اراك مقطوع الذراعين .. لقد احببتك في كمالك وعذابك وضعفك .. ولم احبك وأنت تقنبو وتقتل وتقطع رحلك وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف اصبح امرأة اخرى ولن يتعرف كل منا على صاحبه .. سوف نكون شريرين ينتقم كل منا من الاخر ..
 - سوف احبك الى الأبد مهما حدث ..
 - اما انا فأعلم جيدا ماذا سوف افعل اذا تزوجتك ..
 - ماذا ستفعلين ؟
 - سوف انتقم منك .
 - انت مجنونة .. انت مجنونة .
 - انا لا استطيع ان اخون نفسى .. انى احبك بنفسي وأتسرب اليك بروحى وأعشقك من خلال روحي .. ولو خنت روحي فسوف اخونك وأخون الدنيا
 - انت لا تحيينى .. انت تكريهينى .
 - وبنت لهذه الكلمة غرغ من نفقى ونظرت الى صامته وبكت ..
 - وأسكت بها من كنفها . ورحت أقبلها في كل مكان من صدرها وأهتف ..
 - لن يكون في الدنيا حب اذا لم تزوج ..

- ليس في الدنيا حب .
- لا تقولى هذا يانانى ..
- ان الحب في قلوبنا وليس في الدنيا انه في وهنا فقط
- الدنيا لا تحتمله . ولا تستطيع ان تحقه .
- لا نقولى هذا الكلام .. انى اختق حينما اسمعك ترددين هذا الكلام ..
- ان الواقع هو الذى يخفقنا جميعا ان الحب في قلوبنا عميق .
- عميق ولكن الحب في الواقع يخفق بالنسوة والغيرة والانانية .
- والمصلحة والعادة والملل والضجر وأنا لا اريد ان اخنق حبي لك
- بالواقع .. اريد ان احتفظ به في وهمى وأغذى به خيالى
- سوف تكونين سكى وبقى وحياتى
- لقد فات الأوان .. لقد سقطت الامطار بعد ان جف الزرع
- لا تعذب نفسك وتعذبنى معك .. ولا تثرثر كثيرا كالاطفال الصغار ..
- انظر الى .. احتضنى بذراعيك .. دعنى المسك هكذا .. دعنى اغلى
- بالنظر اليك .. دعنى ازود بمؤونه اعينى عليها العمر كله .
- وأخذت تنظر الى فى هيام وكان فى عينها فزع .
- كانت فى عينها نظرات امرأة تودع شيئا لن تراه ..
- وأصابتى عدوى الفزع الذى يطل من عينها وأسكت بها
- أهزها .
- اننا سوف نلتق مرة اخرى .. سوف نلتق كل يوم .. كل لحظة .
- أليس كذلك .
- وأجابت فى نبرة جامدة ثابتة وهى تنظر فى وجهى .
- اننا لن نلتق
- مستحيل .. مستحيل .

- انا لا احب هذا اللقاء المروق .. انه ليس حبي ليس انا

ليس انا

- سوف نزوج .. وتحقق الحب الكبير الذى تعلمين به .

- ان حبي يتحقق فى قلبى وحده فى وهى ان كل الامكنة
تضيق به وكل الحلول تضيق به انه المستحيل الذى احتضنه فى
ضلوعى .. وقد ضاقت الدنيا به على رحاتها

وانهارت نيكى وكل جسمها يرتجف .

ونظرت الى من خلال دموعها وغمضت ..

- لماذا أعذبك .. لماذا تركنى اعذبك هكذا لماذا لا تقتلى .

- نانى .. كفى هذيانا ..

- لماذا لا تقتلى ..

ونظرت الى .. نظرت الى فى شوق طفلة .. وهى تتصقفى بنظراتها .

- هل عندك حل ؟

- الحل هو ان اتزوجك .

وضحكت ضحكة هستيرية وغمضت

- ايها العجوز . انك لا تصلح زوجا لى .. افى ارفض ان اتزوجك .

وقبلتنى فى جبينى وهى تقول :

- اريد ان احفظ هذه المنسوط الرفيعة التى فى جبينك خطأ خطأ

حتى اذكركها كلها وأنا وحدى .. وأستحضر صورتك فى خيالى .

وأراك أمامى هكذا وأنا جالسة وحدى فى البيت ارتجف من البرد .

- نانى .. لماذا جئت معى الى هنا .. لماذا تقولين هذا الكلام ..

ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء

- لماذا فعلنا كل ما فعلناه . لماذا تمسكين بيدي هكذا .. كأنك

تتصرينها ..

- اريد ان اغفل يدك لأصل الى روحك .. اريد ان استولى على روحك . اريد ان آخذ روحك ..

وضحكك في حزن :

- انت تعذبنى •

- الدنيا هي التي تعذبنا الدنيا هي التي خدعتنا .. الدنيا ادخلتنا في غرفة مظلمة لنختار ملائنا فلم نستطع أن نتعرف على ثيابنا في الظلام .. وخرجنا كل واحد يلبس لباسا غير لبه .. ثم تمزقت ملائنا من ضيقها وبليت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف وفي النهاية لم يبق لنا ثياب نستتر بها أنفسنا

- سوف نفصل لأنفسنا ثيابا جديدة

- سوف نفصلها من الخرق القديمة . ولن نستترنا الا لحظات ثم

تمزق ثانية ..

- ناني . لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس ؟

- لأنى لا اجد حلا .

- ولكنك تعذبينى الى جوارك .. أليس كذلك ..

ونظرت الى في ارتياح وأخذت تتحسسى لتأكد من انى موجود فعلا .

- نعم .. هذا انت كلك حولي .. كلك حولي ..

وامتلأت عينها دموعا

ودقت ساعة الحائط عشردقات .. فرغنا رأسينا في وقت واحد في

فزع ..

- الساعة بلغت العاشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب ان اعود

حالا

وكانت الدقة الاخيرة ما زالت تدوى في اذنى .. وكان صوتها كثيبا .

ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المرأة .. وكانت تمسح بظهرها .. وكان قلبى يبط .. ويبط فى ضلوعى .. حتى يصل الى قدمى .. وأسرت اليها احتضنها .

- لا تنزل الان ..

- كيف ؟

- ابقى لحظة . اريد ان اكلمك قليلا ..

- ماذا تريد ؟

- اريد

وتعلمت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد .

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامى ..
انطلق إليها .. وأشم عطرها .. وأرى شفتيها وهما تنفرجان .. وأرى عينيها .. وهما تملئان بالشوق ..
كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهى تجاوبنى بأى كلام . وقلت لها فى أسمى :

- نائى .. لا اريد ان احس انى سوف افقدك .. ان هذا الاحساس يقتلنى .. يقتلنى ..

- انك لن تفقدنى .. سأعيش لك دائما .

- هل هذا صحيح ؟

- لا يوجد شيء صحيح فى حياتى غيرك انت ..

- ولكنك ذاهبة الان .. أليس كذلك ؟

- اينما ذهبت فسوف تكون معى .. فى كل بيت ادخله .. وفى كل

كتاب افتحه .. وفى كل نعمة اعزفها

- لا اريد .. لا اريد هذا اللقاء .. انا اريدك انت لحما ودما ..

ونظرت الى فى اشفاق .. ولم تتكلم ..

وخلف العينين المشفقين .. كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .
كانت تسألني بعينيها ماذا استطيع ان افعل يا حبيبي .. انا احبك
وأريدك .. وانفك .. ولكن ماذا افعل .. كانت تشبث بي فانقطع . في
يديها ولا تجدني ولا اجدها .. وكلانا بمسك بالآخر
كنت اقرأ كل هذا في عينيها .. وأنا أنظر فيها ويداي مطبقتان
على يديها ..

ولم اجد شيئاً اقله ..

وصحبها في عريبي ..

ولبت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا نستطيع الخروج في
النور .. عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تعاقبنا على السعادة التي نسرقتها
بالسجن .. والحياة في الخفاء في فزع .
وكنت اتساءل . لماذا تعاقب في جهنم .. والعذاب يتعقبا على
الارض .

الجزء يلحق بنا لحظة بلحظة . قبل ان نلتقط انفسنا .

وكنت انصر بالضيق .. وبالهمز .. وبأني مظلوم .. وأحسد الفضلاء
على السكينة التي يمشون فيها
كنت أتعذب ..

ولم اجد ما ابته سخطى سوى العربة الحديد التي اركبها .. فضنخت
بقدمي على البزير وانطلقت اطر في سرعة خطيرة وكان الاحساس
بالخطر يريح اعصابي .. ويسكت الضجة التي في دماغي .
وكانت نافي تشبث بذراعي في خوف ..

ما ذا هناك .. لماذا تسرع هكذا .. هل تريد ان تنتحر .. هل تريد
ان تموت .

هل اريد ان اموت . ربما
- هل تحبين الحياة
- نعم احبها لأنك فيها
- هل تجزعين من الموت اذا متنا معا
- لماذا تقول هذا الكلام . انت تفرعنى
ونظرت الى بعينين واسمتين يغمرها الحنان .
وارتاحت نفسى وأنا انظر اليها .
وكنا قد اقتربنا من البيت .. فهدأت من السرعة . وتوقفت ..
وكانت هناك عربة اخرى قادمة من الامام ..
وأضاءتنا بكشافاتها ..
وهست نأى فى ذعر .. انه عزيز زوجى
ونزل عزيز من العربة .. ووقف ينتظرنا . وكانت تبدو عليه
الدهشة

لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام .
عصفت بي حصى الزمتمنى الفراش .. وليبت أهذى .. وأتلوى من آلام
حادّة في عظامي .. وأتقلب في طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق .
وسكنت روعي مثل ضراع القفت به الريح على شاطئ مهجور .
وفتحت عيني لأجد زوجتي واقفة عند رأسى .. وفي يدها كوب من
الليمون .. وعيناها واسعتان .. مثل بحر من العسل ملئ بالحنان ..
وأراحت رأسى على كفها لتسقى .
ونظرت الى عينيها .. وخارت قواى ..
ورنت في أذنى كلمات ناعى .
كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة لتنظر في
عينيها وأنت تلقى عليها اليمين .. كيف تجد القوة لتززع ولدك الصغير من
نوبك وهو يتشبث بك عند الباب .. أنه فعلتك التى فعلتها ..
إنك تستطيع أن تغشون الدنيا كلها .. ولكلك لا تستطيع أن تغشون
نفسك . لا تستطيع أن تنكر فعلتك .
انك حينما تغش نفسك تغشونى فأنت تحبى بهذه النفس .. وتمسقى
من خلالها مستحيل .
ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..

رأيت المستحيل في البحر الساذج الخنون في عينيها .. وصممت صوته
في بكاء ولدى .. وهو يتاديني ..
وتذكرت كلمات نافي .. وأنا أقول لها .. سأتزوجك .. سأحقق الحب
الكبير الذي تخلمين به .. وهي تجاوبني في ضعف .
- ان حبي يتحقق في قلبي وحده .. في وهي .. ان كل الأمكنة
تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذي احتضنه في
ضلوعي ..

كنت أشعر بهذا المستحيل في تلك اللحظة .
كنت أشعر بارادتي تنكسر على عيني زوجتي وهي تنظر الى ورغباتي
تذوب أمام عريضة ولدى الصغير وهو يضع يده في كمي ..
ماذا أفعل أمام البراءة ..
كيف أنظر الى البراءة في عينيها وأصغفها ..
لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعي على المستحيل . وأعيش به
وحدى في الظلمة .. أسجنه معي .. ويسجنني معه ..

ينست تماما

وكانت زوجتي تحدثني في نبرة أسي

- هل سمعت الصراخ أسي ؟

- أي صراخ ..

- لقد كنت محموما

- ماذا حدث ؟

- لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها وسقطت
الكوب من يدي .. وغامت عيناى .. وأظلمت الدنيا أمامي فترة .
وأفقت لأجد زوجتي تدلك خدي .. وتربت على شعري .. ولم تقطن
الى سبب المي .. لأنها عادت تقول في حزن :

- مسكينة ناني .. ان زوجها رجل متوحش .
ومسكين أنا أيضا يا ليتنا تعلم كم أنا مسكين .



وفي الظهر تلقيت هذا الخطاب من ناني :
أكتب لك يدي اليمنى ويدي اليسرى في الجبس .. شكرا لله انه
أبقى لي يدا سليمة أكتب لك بها
لقد ضربني زوجي وكسر ذراعي .. مسكين انا لا ألوهم .. ولكنني
ألوم نفسي فقد كنت قاسية في معاملته .
أرهقني بشكوكه وأسلته وسبابه وفظاظته وغلظته حتى جن جنوني
وتناولت عليه . ففقد صوابه وهجم على كالوحش .. وأخذ يضربني
حتى كسر ذراعي ..
ليته أقي على البقية الباقية مني لاسترحمت .. ليتة اسكت قلبي
الذي يهتف باسمك .
إن وجودي يرهقني ..

إن عواطفي تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها عاجزة عن
إطلاقها أسير في الحياة كدمية مشطورة نصفين . نائمة مترددة .
نصف نائمة نصف مستسلمة .. أقوم بأفعال لا أقتنع بها . وأقتنع
ببإدائي .. لا أعمل بها ضائعة .. ضائعة تماما .. أملئ الوحيد
مستحيل

لقد ظلمت أفكر بمد أن افترقنا كيف أوتيت المرأة لأفعل كل
هذا كيف خرجت من بيتي لأقابلك .
كيف جرؤت ..
ولكني الآن أعرف كيف حدث هذا .

ان العذاب الذى أعيتى فيه افقدنى القدرة على التمييز . كنت
كالحكوم عليه بالاعدام الذى أباحت له الحكمة ان يطلب طلبا قبل ان
يموت .

لقد اهدرت الظروف السيئة حياتى .. واستباححت دعى .. وطاردتنى
حتى سلم المقصلة ..

ماذا هناك أكثر من ان تقطع رأسى .. لا شئ ..

وطلبت أن أراك ..

طلبتك قبل أن أموت .

طلبتك وأنا أحتنق فى غرفة الفاز .

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شئ من حقى .. أى شئ .. حتى
أنت ..

يا الهى ..

انى استطيع ان اخاطبك انت وحدك .. ولكنى لا استطيع ان أخاطب
الناس

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى
سواك ..

أنا ساقطة فى نظر الناس ..

ولكنى أعيش فى جهنم

جهنم .. هى حياتى ..

لقد دفعت ثمن خطيئتى فى الدنيا .. ونفذت العدالة أمرها فى
مصرى .

انتهى أمرى ..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..

ان الخطيئة شقائى وليست لذى .

انى أحسد الفضلاء ..
ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة
انها الجنة .. انها مكافأة جميلة .
انا اعجب للفضلاء ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم بالجنة .
أى جنة . وهم فى الجنة فعلا .



يا حبيبى ..
أجل نئى فى هذه اللحظة انى وحدى لا شئ معى سوى خيالك .
أتملك أمامى بقامتك الطويلة .. ووجهك الأسمر الرقيق .. وعينيك
الحاترتين وهما تتدفقان حنانا وطيبة .. وأسمع صوتك الأجنس .. ونبراتك
الرحيمة .. وأعيش فى انسجام مع روحك .. اغل برؤية نفسى فى
مرأتك فى كلامك .. وخطواتك .. ولفاتك .. وضحكائك .
الساعة التى قضيتها معك .. تزودنى بزيادة من الموسيقى لا ينفذ ..
يلا وحدنى بالأنغام .. ويكشف لى جمالا خفيا وراء كل شئ أنسمه
بحواسى فى لغة .
فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب .
لم أعرف ..

ربما لأنك حريق .
ربما لأنك اردانى التى قرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف
وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل اليك ..
ربما لأنك أنا وقد ظفرت بك .. وبنفسى فى ذات الوقت ..
ولو أننى قد اخترت زوجى يكامل حسرى .. لما أحبتك .. ولما
عرفتك ..

أنانية

ولكن لا

انها ليست أنانية الى النهاية .

هناك سر آخر .

سر في الدنيا كسفت لى عنه فأصبحت أحبا وأتسر بمجاهها
وأهتز لنسائتها .. وأتلفذ بالحياة فيها
سحر خلق في الوجود دلى عليه حبك ..
ما أكثر ما يستطيع الحب ان يفعله .

انى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب اخى .. كيف
كان يضئ بشغافية حلوة .. وكانت أساريره تضحك في طلاقة ..
وحر كاته تنساب في خفة ومرح ..

وأتأمله الآن .. وهو ثقيل معتم جامد غليظ يتحرك في لزوجة
وبطء .. الكراهية تشيع في جسمه كما تشيع الرطوبة في المفاصل ..
كيف أتسر أحيانا وهو ينظر الى .. انه سوف يقتلنى .. كيف أحاول
المستحيل لأفهمه دون ان أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع
الامتزاج بها .. مادة ثقيلة ترسب في نفسى ولا تدوب ..

كيف تتعاصر منذ سنوات . ونحن منفصلان .. نتلامس بالجسم
فقط يجمعنا الاشفاق احيانا فأنصدق عليه .. وأنا أتأفف .. كانى
أتمجرح دواء مرا . ثم أعود فأثور عليه وأتلفذ بجرمانه وتعذبيه .
والآن .. وأنا أحبك .. كيف أتسر أحيانا .. انى احب كل ما فى
الدنيا .. وأنى أحبه .. حتى هو أيضا .. وأزداد قربا منه ومن
أولادى .. ويبقى .. وأتسر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا ..
حبك رد لى قدرق على أن أحب . وأعطى .. ومنحنى القسوة
لأغتنر .. وأتحمل ..

ان الكراهية شئ فظيع يوقف الدم في القلب..
وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح.. أحاربها وأنا
أكره ان احاربها وأكره نفسى . كنت تعيسة.. تعيسة جدا أنتص من
أن أدافع عن حياتى .
ولكنى الآن أحارب الدنيا . بك .



فكرت فيك وأنا أنام .
واكتفيت وأنا أغمض عيني بأن افكر فيك واعيش في معنى
وجودك ..
ولم يخطر ببالى ان أنهب اليك بحسمى .. وأحاول ان أقايلك ..
كان شعورى لمحوك .. وشعورى نحو نفسى .. أكبر من ذلك الأجر
الزهيد الذى تعدق به هذه المقابلة ..
كان ملتقانا فى الخيال أرحب بكثير من الغرفة التى التقينا بها فى
الواقع .. وكانت مسرق بك أعرق ..
لا ليست الفضيلة .. كما تبادر الى ذهنك . هى التى تمنعنى من
أن اسعى اليك .. فأنا لست امرأة فاضلة .. وإنما حبي هو الذى
يمنعنى . إحتاسى بأن أى لفنة أفوز بها معك بالجسد لن تطلق عطشى ..
ولن تساوى عطشى .. وكل ما ستفعله .. انها سوف توسع هوة
المستحيل التى نقف نحن الاثنان على حافتها .. وتزيد حسرتنا
وبأسنا .. وعذابنا
وطمعى فى أن أفوز بك كاملا هو الذى قصدنى فى مكانى لا أبرحه
ولا أحاول أن أسمى اليك لألقاك .. ولا أرغب فى هذا القسط الزهيد
من اللذة ..

لم أكن فاضلة .

كنت أريد اللذة كلها ولم يكن يشبعني قسط منها .. لم تكن
تشبعني رشقة من حافة كأسك . أو لمسة من وجودك .. ولهذا أثرت أن
أعيش في معنى وجودك .. مع صورتك وفكرتك ..
شكرا لك .

إن حبي لك يحميني منك ويحميني لك ..
ويحميك انت أيضا لي .. كأجل ما تكون مع زوجتك وولدتك ..
إن الحب شعور طيب مهما كانت صورته .. ولا يمكن للواقع ان
يساومه . لأن الواقع أضيق منه وأرخص . ولو أني أصبحت زوجتك
فلن يجد حبي لك كفايته .. وسوف يفتق في التعامل اليومي المبتذل مع
الطباخ والبواب والبقال .
إن الحياة قاسية .. قاسية .

الحياة تدوسنا وتدوس مشاعرنا .. وتدوس أحلامنا . كل شيء
يتحقق فيها تسقط قيمته .. حتى المادة نفسها .. حتى النقود .. تظل
حلمًا جميلًا حتى نكسبها وننفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئًا عاديًا زهيدًا .
ونتخلص منه بالقمار ..

أنا أكره الواقع ..
وأحبك انت أكثر من الواقع .
وأكثر من الحياة

وأحب حبيك أكثر منك .. وأكثر من نفسي وأصعد به الى سماءات
أجمل من نفسي ومن الدنيا سماءات مضيئة في داخل . تمنحني
السعادة .. والسلوى .. والعزاء .

يا حبيبي يا أجمل ما في دنياي .. أنا أحبك الحب كله .. فلا تحبني
الحب الصغير الذي لا يذكرني الا حينما يحوج الجسد ونجوع العينان

ونجوع اليـدان .

أحبني الحب الكبير .. الذى ليس له حل .. وليس فيه شج ..
وليسـت له وسائل ولا أوقات ..
الحب المستمر مثل الوجود .. الحاضر فى القلب مثل الخفقان ..
المتصل كالأنفاس .. فى النوم واليقظة .

لا تحاول ان تسمى الى لقاء مـروق لتشيع جسدك وعينيك منى .
ان هذا أجر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذى أحبه لك .
سوف أحزن كثيرا اذا حدث هذا .. سوف أتعذب .
سوف تعذبني وحدتي من جديد .. وحدتي فى غيب لم يجد صـداه
ياحبيبي يا أملى .. لا تخذلني ..
دمت لى . ولولـدك .. ولزوجتك . وسعدت فى كل اوقانتك ..

« نائى »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا .. وأربعا .. ولا أدري كم مرة
بعد هذا كنت أقرأه .. ثم أضعه الى جوارى ثم أعود فأقرأه .
وكأنى أجـرى وألـث . فى طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرن
حولى .. ولا أجدها . مثل الروح غـلاضى ولا أراها ..
مثل روحى أنا .
قريبة .. ومستحيلة .

منذ شهر وأنا أعمل في ورشة السيارات التي فتحتها . كل يوم من الصباح الى المساء .

أشعر بلذة من الانتهاء في عمل .. وأشعر بسعادة لأنه عمل .. أوظف فيه خبرتي وذكائي ومجهودي دون وساطة أحد .. أنا والآلة نقف وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكيها .. وقد تطورت العلاقة بيننا الى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمي له قلب وأحشاء ولحم ودم .

تمت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو اني استطعت ان أفك نفسي وأعيد تركيبها

تمتت لو أنها طاوعتني ..

ان الحديد يطاوعتني ولكن قلبي لا يطاوعتني ..

أنا أبت عقل في الآلة فتتحرك .. وتنظم .. ولكن عاجز عن أن أبت عقل في عاطفتي .

أشواق تحرقني .. صوتها يرن في أذني على الدوام .. روحها تحكمني وتسلبني الارادة ..

أتمنى الهدوء لنفسي فلا أجده .. كيف أنساها كيف أروحي نفسي على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطلق ضرام الرغبة .. ولهب الحنين .. وعقلي .. حتى عقل يشتهيها ..

إنها تجدد الحصانة منى في حبها لى .. فالى أنا لا أجد حصانة منها فى
حبى

حاولت ان أجعل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات
الحواس ولكنى لم أستطع .. غلقتى بشريق .
أحتقرت نفسى ..

كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه فى
خوف وتردد . أمد يدي ثم أردتها .

وأحيانا كنت أرفع الساعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم
لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع الساعة من جديد .. وكنت أجد فى
ادارة الأرقام لذة ليجرد انها تنتمى اليها .. وكان اسمها على لسان زوجتى
بحركتى .. كأنه كائن حى ..

وكانت الموسيقى تعذبنى تذكرنى بها .. بتقاطيعها .. بعودها
النحيل .. ومشيئها المنسجمة .

فكرت كثيرا فى خطابها الأخير .. وفى كلماتها ..

كيف صعدت الى هذا الصفاء المعنوى .

مالذى شدها الى فوق .

العذاب ١١ .

المستحيل ١١٩

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشدنى .. ودنيا
الحواس تجذبى .. ويبدو لى أكثر اقناعا
كانت بيننا مسافة انسانية .. هى العذاب الذى تعذبته ..



سافرت الى الاسكندرية لأغرق هوى فى صخب المصيف .. ولكن

الأمر لم يتغير كثيرا .

كان الضخيب يطفو على سطح ويجردى .. والحوادث تجري حولي
كأنها على شاطئ .. ممزولة عن نفسي .. لا أتطاطف معها الا بمحاملة ..
دون أن أمتزج بشئ فيها بالقلب .
قابلت الأستاذة فاطمة المحامية .. وكانت غنى وحدها بإعياء .. نخيلة
شاحبة تحت عينيها غضون سود ..

لم اعرفها في البداية حتى سلمت على .. فأخذت أدور بعيني في
جسمها باحنا عن الاستدارة الجميلة التي كنت أراها مرسومة تحت
الفتتان .. والصدر الرجراج الشهى الذي كان يكظ من فتحة
نورها

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت غارها ..
طلبت مني أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمفص عاردها
ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطبيب .
تذكرت الليالي التي قضيتها سويا .. وأنا استمع الى صوتها
المبلبل .. تذكرتها كأنما أتذكر سرايا
كيف حالك يا حلمي .. يغيل الى أن سنوات مضت دون أن
أراك .

- نعم .. سنوات .

- تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..

- هموم الحياة .

ولم أنسأ أن أخبرها بشئ من هموم الحياة .. ولكنها قالت في فضول :
- لم أكن أعتقد أن الهموم نستطيع أن تنالك .. كنت تبدو لي دائما
رجلا قويا ..

- ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. اليس كذلك ؟

- ماذا تعنى ..
أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..
- أنا
واكتست عيناها بالهمز وأردفت فى نبرة كسيرة ..
- أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما أقتل نفسى . طول عمرى
وأنا أقتل نفسى .. لم أجد أحدا ينقذنى ..
- لقد قتلت كل من حاولوا انقاذك يا فاطمة . انت تعلمين جيدا
كيف كانت حياتك ..
- نعم أعلم ..
وسكتت ثم أردفت فى يأس :
- لا فائدة . لم يعد هناك فائدة ..
- لا داعى لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من
جديد .
- أنتظن هذا ..
- أكيد ..
وفى الحق لم أكن متأكد .
- أنسرك على هذا التشجيع .
وأردفت بعد لحظة :
- ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى .. امرأة سيئة .
أليس كذلك . لا تحاملنى أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا كانوا
يقولون عنى امرأة سيئة .
ولم أقل لها أنى لم أتذكرها الا اليوم .. وإنما قلت مجاملا :
- كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معا .
- شكرا .. يا لك من ولد رقيق جميل .. كم كنت أحبك ..

وقلت لها باهتمام :

- قولى الحقيقة يا فاطمة . هل كنت تخبئى .. لقد فات أوان الكذب .

وأجابت فى ملل :

- يا ولدى الصغير .. أنا لم أحب أحد . ولم يحبني أحد .. لا يوجد رجل فى الدنيا أهل للحب .. أنت تعلم بأمنيا لا وجود لها ..
- ألا تشعرين بالنقاء وأنت تقولين هذا الكلام .
- دعك من التفلسف .. وقل لى هل أحببت أنت ..
- نعم أحببت .

- ومن هى الساذجة التى خدعتها يا ترى ؟

- أنا لم أخدع أحدا .

- اذن فقد خدعت نفسك

- وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى

لتخلق قصة وهمية تجعل بها حياتك . أليس هذا هو الحب .
- إن الحب هو الذى خلقنى . ولست انا الذى خلقته .. أنا لا أستطيع أن أخلق حبا

- هذه اشعار .. ان الواقع غير هذا .

- وما هو الواقع عندك .

- الحب فى الواقع هو الصنم الذى نلجأ اليه لنقضى وقتنا طيبا فى الفراش . انه الكلمات الشبهة التى نقولها لبعض لنقبل على الأكل بنفس مفتوحة ونصنع لأنفسنا جوا من المحاسن ننسى به الوقت ..
- لسنا فى حاجة لأعذار لتجتمع فى الفراش .. ان الضريرة تعتذر بالتيابا عنا . وهى تتكفل بخلق المحاسن اللازم وأكثر ..
- لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

- ان لقاء الفرائس قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب . وقد لا يتم للمرة .. ويقوم الحب بدونه .

- هذا كلام فارغ .

وشعرت ان كلامي يضايقها .. فسكت .. ودخل الطيب .. ونفضها .. وكما حدث في المرة السابقة .. وقف يصمصص شفته في استغراب . ويقول انه لم يجد شيئاً ذا بال .. ربما كان احتقاناً أو برداً في المعدة .. أو أى شئ نافه لا يدعو للقلق .. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقة مسكة .

وفتح حقيته وأعطاه الحقة .. واستمادت روحها . ومرحها . وقالت مداعبة :

- والآن احك لى عن حبك يا صغيرى . فقد مضى على وقت لم أسمع نكته ظريفة .

- ان حبى ليس نكته ..

- حسناً أخرج منديلك لتكفكف به الدموع .. وأحكى لى عن تراجيدبا غرامك .

- ألا تستطيعين ان تتكلمى عن شئ دون أن تسخرى منه .. ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل الصدفة

- أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب فى كذب .. انها نكته . انها

سخف لا يحتمل

- ومع هذا فيبدو انك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة ..

- وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه

- ألم يحضر بذهنك ان السخف قد لا يكون فى الدنيا وإنما قد

يكون في طريقة حياتك لهذه الدنيا ..

- هذا وعظ مسيحي جميل .. يبدو ان صاحبك راهبة في
الفرنسكان .

- انت اسوأ دعاية لآرائك فن الواضح انك لم تستطعي ان تلبسي
بهذه الآراء اى راحة او سعادة وهذا انت بعد ثلاثين سنة .. وحيدة
لا رجل . ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت .. ولا حتى صديق .. وحيدة
مريضة في فندق مهجور وفي بلد لا تعرفين فيها احدا .. هل هناك فشل
اكثر من هذا لك ولآرائك . هل يمكن ان يعاقب انسان على آثامه
بأكثر من هذا ..

ويبدو ان كلامي كان قاسيا لانها سكنت .. وشعب وجهها وظهر
عليها الحقد والمرارة واليأس ..

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة .. تبكى .. وتشد
شعرها

- حلمي . حرام عليك . لا تقتلني .. لا تقتلني

انا مسكينة مسكينة انا في حاجة إلى العطف والحنان .

- لن تجدى العطف والحنان إلا اذا اعطيت العطف والحنان .

- انا غير قادرة على ان اعطي احدا شيئا انا لا املك عطفًا
ولا املك حنانا انا مسكينة . مسكينة ..

وظلت تردد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى
استراحت وهدأت فسحت دموعها ثم قالت في صوت ضعيف هاس :
- حلمي انت لا تعرف عنى شيئا ..

- انا اعرف ما يكفيني .

- ايذا ..

وسكنت لحظة ثم عاودت تبكى فى سكون .. وقالت فى وجعل وتردد ..
 - سوف اقول لك حقيقة لا تعلمها هل تعرف سر هذه النوبات من المص القى تتناهى ..
 وسكنت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب ..
 - انى اتحايل بها لأحصل على حقن المورفين .. انا ادمن المورفين من زمن طويل .
 وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى قاما ..
 وأحسست بالإشفاق الشديد نحوها
 - يجب ان تدخل مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الإدمان المدمر .
 - لا فائدة - سوف اعالج الادمان .. ولكن كيف اعالج حياتى ..
 كيف احتملها بدون ان اتجرع السم كل يوم . كيف اعيش بلا حب
 بلا هدف بلا ايمان .. بلا معنى . بلا إله كيف احتمل حياة كلها
 عبت فى عبث .
 لماذا لا تتكلم ..
 - ماذا استطيع ان اقول لامرأة لا تشعر أن فى عالمها إلهيا كيف
 ادخل لها النور .. وقد اغلقت كل النوافذ ..
 - انا لا اريد الهيا .. انا اريد رجلا يحبنى وأحبه رجلا يحبنى بكل
 قلبه ..

وعادت تبكى



طبول الطريق أثناء عودتى من الاسكندرية كنت أفكر فى نانى ..
 عصفور جميل سجين .. بين جدران اربعة من المستحيل . لا يملك حريته
 ولا خبزه ولا جسمه .. يفتى . لأن لمسة من الحب لمست روحه
 ففاضت بالحنان والجمال . وأحببت كل شئ .. حتى الآم وجدت له
 ميرا وعذرا ..

وفاطمة التي تمرح طليقة كما تشتهي شرب السم تموت ببطء يائسة
وحيدة تعيسة .

بدون حب ..

يا ويلنا بدون حب ..

واحسست بالشوق . بالشوق اليهم الى الصعود حيث توجد حبيبتي
في ملكوتها وجمالها ..

وكان الشوق يسحقني يذيني ..

وكان اول شيء فعلته حينما وصلت اني جرّيت نحو التليفون واغلقت
الباب كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده

ورفعت الساعة وادرت القرص على ارقامها الخمسة ثم جبت
فوضعها وانا ارنجف .. ثم عدت اخلق في الآلة السوداء .. والمشاعر
تنخطفني وليت فترة .. ثم عدت فأدّرت الرقم .. وسمعت صوتها
رائقا .. صافيا حلوا ..

- نافي .. اريد ان اراك ..

ولبت صامتة لحظة .. ثم اجابت في صوت متهدج يذوب حبا :
- يا حبيبي .. اني اراك . اراك انت وحدك .. ولا أرى شيئا
سواك .. ارى بك الدنيا كلها .. اراها في ضوئك ..

- نافي .. انا اريدك ..

- يا حبيبي لا تغذلي .

- اني احبك . احبك .

- ان حبك جعلني ملكة .. فلا تدعه يجعلني جارية
- انا احبك .

- انا اعبدك .. انت روحي .. ارادق . املي .

- كن ارادق الكبيرة ولا تكن ارادق الصغيرة ..

- انت لا تحبيني كما احبك ..

- انا احبك اكثر مما تحبني
وسكنت ثلثت .. وغطفت انفاسها كأنها كانت تجري شوطا
طويلا

وأحسست بلهنتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب جدا
من روحى ..
وأحسست انى صغير جدا الى جوارها .. ولم اعرف كيف اعتذر.
- ماعدبنى لأحبك كما تحبيني ياملكتى .. لن اجعلك جارية ابدا ..
ابدا سوف اكون ارادتك .. إردائك الكبرى .. وأحمل أحلامك .
- يا حبنى .. يا حبنى .. يا حبنى .



وظللت برهة ساكنا لأحس بوجودى فى الدنيا .. ثم بدأت
أفيق ..

وذعيت الى عملى .. وظللت اشتغل الى وقت متأخر من الليل ..
وعدت مرهقا لأعتمد فى فراشى ... مفتوح العينين فى الظلام ..
أتذكرها وأتذكر كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأتمس منها القداسة ..
والنجاة .. وأتوسل بها الى الجزء الأسمى من وجودى .. وأصعد اليها
على درجات المستحيل درجة .. درجة . يأخذ حبا بيدي .. الى حيث
اجل لذاتنا ..